الرَّجُل النَّمْلة

رواية

هشام البَواردي

دار العين للنشر

الرَّجُل النَّمْلة

رواية

هشام البَواردي

دار العين للنشر

إلى:

حنان عبد الحميد البواردي

وعبد الفتاح لطفي رمضان

وابنتهما آية

يا صديقي: أنا ضئيل.. أنا تافه!

يا صديقي: أنا عظيم، لدرجة أني أحمل العالم داخلي، وأمشي به!

0

سلامي إلي الأستاذ محمد عثمان له مني ألف مليون سلام، وسلامي إلي عمي رمضان له مني ألف مليون سلام، وسلامي إلي عمي الحاج أمين له مني ألف مليون سلام، وسلامي إلي كل من معك في الأردن، فرداً فرداً، له مني ألف مليون سلام، إزيك يا آبه؟ أنا عاوز كرة كَفَر زي كرة محمود وردة، وعاوز فلنة مكتوب عليها رقم 7 من ورا، وعاوز كوتشي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

1

الكرة كانت جميلة، كان لها مثلثات سمراء وبيضاء، وكانت شبكة سوداء تفصل بين هذه المثلثات وهذه المثلثات، وحين أنططها

في الشارع، جاء على صوتها عيال الشارع كله. كان محمود وردة يقف بين عمود الكهرباء والمصطبة، وكان محل حلمي الحلاق خلفه، وكان يقول: شوط عليّ.

وكانت هند السماحي تنظر إلينا وتقف بعيدة، وكان عيال الشارع كلهم ينظرون إلى الكرة.

لعبنا التقسيمة. كان محمود وردة يلعب في فريق، وكنت ألعب في الفريق المنافس لمحمود وردة، كنا صخرتي دفاع أمام كل جون، وكنا نشوط على كل جون، وكنا ندخل الكرة في كل جون.

وحين لعبنا ضربات جزاء في النهاية، وقفت لفريقي جون، ووقف محمود وردة لفريقه جون، وكنت أسمع صوت تواشيح العصر من المسجد البحري وأنا أنظر إلى الكرة. كنت أفكر: أشوط الكرة على شمال محمود وردة ولّا أشوطها على يمينه؟ شوطت الكرة في منتصف الجون، واصطدمت بمحاشم حسين السماحي وهو في طريقه لصلاة العصر، وصرخ الرجل، ووقعت عباءته من الخضة من فوق كتفه، وقال: يا ولاد ميتين الكلب!

وجرى العيال هربًا من الشارع، وكانت هند تقف بعيدة وتنظر إلى أبيها، وكنت أفكر في الكرة، كان حسين السماحي يلتفت يمينا وشمالاً ويفتش عنها، وكانت عيني على الكرة الموجودة تحت العربة

الكارو، وكان حلمي الحلاق يقف خارج محله فوق المصطبة، ويقول: أستغفر اللـه العظيم.

كان يمسك المشط والمقص في يده، وينظر إلى حسين السماحي فيتكلم، وينظر إلى الشـــارع فيضحك، وكانت يدا حسين السماحي موضوعتين على محاشـــمه وهو يســـأل الحـــلاق: ولاد مين دول يا حلمي؟

وكان الحلاق يقول: عيال الشارع.

وكان حسين السماحي يقول: ملعون أبو الشارع على أبو اللي فيه!

وكان حلمي الحلاق ينظر إلى الشارع ويضحك، وكنت أنظر إلى الكرة الموجودة تحت العربة الكارو.

جاءت زوجة حسين السماحي، وكانت هند في يدها، وكانت الأم تسأل زوجها: في إيه؟

كان حســـين الســـماحي ينظر إلى ابنته ولا يتكلم، ثم نظر إلى زوجته وقال: ارجعي على الدار!

ثم سألت زوجة حسين السماحي الحلاق: في إيه؟

وكان حلمي الحلاق يهرب من الإجابة، كان يجاهد كي يَكتُم الضحكة وهو ينظر إليها، وقال لها في النهاية: عيال يا سُعاد!

وكانت سعاد تقول: العيل يتربى.

وعادت سعاد تقول لزوجها: في إيه؟

وكان حسين السماحي يقول لها: اسمعي الكلام يا بنت الكلب وارجعي!

عدنا إلى اللعب بعدما اختفى حسين السماحي من الشارع، وشاط محمود وردة ضربة الجزاء، فدخلت الكرة محل حلمي الحلاق وكسرت المراية، وخرج حلمي الحلاق وهو يحمل المقص والمشط في يد واليد الأخرى كانت تحمل الكرة، وقال: يا ولاد ميتين الكلب!

نقل حلمي الحلاق المشط في اليد التي تحمل الكرة، ثم رشق المقص داخل الكرة ورماها أمام عيني وهو يقول: فاكرني أعمى!

دخلت البيت وكانت الكرة مطبقة في يدي، وكنت أبكي وأمي تسألني: مالك؟

حين خرجت بي أمي إلى دكان حلمي الحلاق، ترك حلمي الحلاق الجمع الملتف حوله، وفرد ذراعيه الاثنتين باتجاه المراية المكسورة، ونظر إلى أمي وقال: هتنفعيني الوقت يا أختي!

وكانت أمي تقول: ليه كده يا أخويا؟! الواد لسه ما اتهناش!

وكان حلمي الحلاق ينظر إليها وهو مستغرب.

في النهاية قال الناس: يحط كرة بلاستيك فيها.

حين وضعت الكرة البلاستيك داخل الكرة الكَفَر، كانت الكرة ثقيلة وغير دائرية، وكانت تعذبني في التنطيط، وفي الشوط، وكانت تلسع قدمي.

لم أقل لكم إن الكوتشي الذي أرسله أبي كان واسعًا، وكانت قدمي تلُق فيه، وكنت أقول لأمي مستفهمًا وأنا أشُد رباطه على الآخر: الدوبارة ما وصلتش!

وكانت أمي تقول: لما يكون كبير أحسن.

في النهاية، وضعت الكوتشي تحت الكنبة ولعبت حافيًا. أما الفلنة فكانت خضراء وواسعة وتصل إلى ركبتي، وكان مكتوبًا عليها من الظهر بالأسود "واعدو اليرموك"، ولم يكن مكتوبًا عليها رقم 7، للأسف لم يكن مكتوبًا عليها أية أرقام.

واضطـــرت أمي في الليل أن تحكي لـــي حكاية، حمار ومعزة وكلـــب، أكل واحد منهم من أرض غلة، وكان صاحب أرض الغلة يُحلفهم أمام البئر، قبل أن أنام لأذهب مبكراً إلي المكتب.

2

كانوا ستة عيال ماشيين على سكة المسقى الشرقية، ثلاثة كانوا يرتدون أحذية بلاستيك ولا يحملون مصاحف، وثلاثة كانوا يحملون مصاحفهم ويرتدون أحذية جلدية. أولهم كان اسمه محمود وردة يرتدي حذاء بلاستيك، وكانت عيناه واسعتين وحاجباه ثقيلين وله غرة بيضاء في مقدمة رأسه وكان يرتدي ساعة كاسيو في يده، وكان يسبقنا بخطوة، ووراءه كنت أسير، وبجواري كانت تسير هند حسين السماحي، كبير مشجعي كرة القدم بالكفر، وخلفنا كان الثلاثة عيال الذين يرتدون أحذية جلدية، كانوا مضمومين على بعضهم، ومنكمشين على بعضهم، ويوشوشون بعضهم.

أولهم ابن الابله هانم، كان طويلًا وشعره أصفر، ومسرح شعره الأصفر على جنب، وكانت شفتاه كبيرتين وأسنانه بائنة، وكان ابن ناظر المدرسة بجواره، وكان تخين، وله لُغدان، وعيناه ضاحكتان، وكان ثالثهم ابن الابلة خديجة، كان رأسه كبيرًا وشعره ثقيلا وجسده العلوي مائلًا على جنبه الايمن.

حين وصلنا الطنبوشة، تركت هند السكة وجرت نحو الطنبوشة واعتلت الدرجة الأسمنتية، ووصل الدرجة الأسمنتية محمود وردة بعدها، ثم وصلت وراءه، ثم وصل الثلاثة المنكمشون، وكنا كلنا

ننظر في الماء الذي في بطن الأرض، وكان محمود وردة يقول: شايف صورتي!

وكانت ساعته الكاسيو ترن رنات قصيرة متقطعة.

وكنت أقول: شايف صورتي!

وكانت هند تنظـــر إلى الماء، وكان الثلاثة عيال المنكمشـــون صامتين.

جـــرى محمود وردة علـــى الجدار الأســـمنتي المنصوب على مجرى الماء الصغير وجرينا وراءه، وكان السمك الولد يعوم على سطح الماء، وكان محمود وردة ينظر إليه بدقة، ثم جرت هند نحو أوضة الطنبوشة وتعلقت ببابها الحديدي، ونظرت داخلها، ثم عادت ووقفت على الجدار الأسمنتي المنصوب على مجرى الماء، وكان ابن ناظر المدرســـة ينظر إلينا نظرته الضاحكة ويسألنا: من الذي اخترع الطنبوشة؟

وكنا ننظر إلى الطنبوشة ولا نجيب.

جرينا نحن الثلاثة وتركنا العيال المنكمشين في الخلف، دخل محمود وردة المصلية وداس على القش المفرود داخلها، وكنت أنا وهند نقف على باب المصلية. صرخ الثلاثة المنكمشون من بعيد: حرام!

فجرينا كلنا على الجميزة.

كان العيال المنكمشون يحاولون صعود الجميزة ومنعتهم أحذيتهم، وكنت أنا ومحمود وردة قد خلعنا أحذيتنا البلاستيك وصعدنا الجميزة وجلسنا على فرعها وأكلنا جميزًا، وكنت أرمي الجميز إلى هند، ومحمود وردة يحكي لي حكاية عفريتة العمدة محفوظ التي تسكن الجميزة وتخرج منها ليلًا، وكنت أرى جثة العمدة محفوظ غارقة في دمائها تحت الجميزة وكان محمود وردة يقذف بالجميز أدمغة الثلاثة المنكمشين، وكان يخطئهم، حتى فرقعت جميزة وانفجرت في رأس ابن الابلة خديجة، فجرى مفزوعًا، وجرى ابن الابلة هانم وابن ناظر المدرسة وراءه، وكان الثلاثة يصرخون من بعيد: يا رب العفريتة تخبطكوا!

3

حين وصلنا المكتب كان الشيخ عوض يمسك "الزُّخمة" في يد، ويده الأخرى كانت تدعك ذقنه الأبيض النابت، كان فمه يُغلق ويُفتح مع فم الولد الواقف أمامه، وكان ينظر إلينا نحن الستة، ثم نظر إلى ابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة، ونادى على الشيخ سفاية.

جاء عجوز أسمر نحيل يرتدي جلابية بيضاء وطاقية بيضاء قماش، فقال له الشيخ عوض: دخلهم أوضة الفاتحة.

دخل الشيخ سفاية أوضة مظلمة ودخلنا وراءه نحن الستة، جلس الثلاثة المنكمشون في أول الأوضة، وكنت أبحث عن مكان داخل الأوضة المظلمة، كان الشيخ سفاية يقف في أول الأوضة ويقول: "بسم اللـه الرحمن الرحيم".

وكنا نقول وراءه: "بسم اللـه الرحمن الرحيم".

ونظر الشـيخ سـفاية إليَّ، ثم قال بنفاد صبر: "الحمد للـه رب العالمين".

وقلت وأنا خائف: "الحمد للـه رب العالمين".

ثم توقف الشيخ سفاية عن التلاوة، ونظر إلى الطاقة الموجودة في جدار الغرفة، وكانت عيناه تبرقان، وكان فمه مشدودًا، ثم عاد ونظر إليَّ وقال: "الرحمن الرحيم".

وكانت العيال تصرخ، وكانت العيال تبكي، وكان الشيخ سفاية يضرب بزُخمته العيال التي على اليمين ثم يضرب بزُخمته العيال التي على الشمال، وكنت أرى العيال المنكمشين وأسمع صراخ هند، ولا أعرف أي شيء عن محمود وردة. ثم عاد الشيخ سفاية ونظر في الطاقة وكانت عيناه تبرقان وفمه مشدودًا وهو يقول: عاوز صوتكم يسمَّع الجميزة.

ثم قال الشيخ سفاية: "مالك يوم الدين...".

4

حين خرجنا من المكتب، سرنا نحن الستة في شارع العزبة، كانت العربات الكارو محطوطة أمام كل دار، وفي كل عربة كان حمار مربوط، وكانت معيز نائمة تحت العربات ومستظلة بظلها، وكانت معيز واقفة وراء العربات، وكانت معيز تمشي بين العربات، وكانت الكلاب ترقد صامتة.

كانت عيناي متعلقتين بالكوبري المضروب على المصرف، وكانت جماعات الإوز خارجة من المصرف، وكانت كل جماعة تحمل في جناحها زيق قماش له لون واحد، كانت مناقيرها برتقالية ومبلولة بالماء، وأرجلها برتقالية ومبلولة بالماء، وعندما حاذتني جماعات الإوز لمحت فرخ الماء يجري وينط في الغاب، كان لونه أسود، وفي وجهه كتلة لحم حمراء تلتف حول منقاره القصير، وقلت لمحمود وردة: لحمه حلو قوي!

وقال لي: الوز العراقي أحلى!

كان محمود وردة ينظر إلى السماء، ويفتش فيها ويقول: الوزاية عشرين كيلو!

كان يقول إن أباه أكله في العراق، وكان يقول إن جده لا يأكل غير السمك، وحين وصلنا أرض الخس نزلها وخلع خساية منها.

5

حين وصلنا إلـــى المكتب، كان صاحـــب أرض الخس يرتدي طاقية بنية عالية ويقف مع الشيخ ويميل على أذنه ويحرك شفايفه، وكانت الزُّخمة تتلوى في يد الشيخ كثعبان، وكان الشيخ سفاية يقف بجوارهما.

عبط الشيخ سفاية محمود وردة، وكانت الزُّخمة تُعلم خطوطًا حمراء على ظهره، وكنا كلنا نبكي، وكان صاحب أرض الخس مبسوطًا. دخلنا أوضة "الفاتحة" نحن الخمسة، وكنت أبحث داخلها عن مكان، وكان الشيخ سفاية ينظر إليَّ ويقول: "بسم اللـه الرحمن الرحيم".

وصرخت وراءه على علو صوتي: "بسم اللـه الرحمن الرحيم".

6

كانت هناك ســـور حفظها سهل مثل ســـورة "قل هو اللـه أحد"

وســـورة "إنا أعطيناك الكوثر" وســـورة "ألم تـــر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل"، وكانت هناك سور حفظها صعب مثل سورة "قل أعوذ برب الفلق" وسورة "قل يا أيها الكافرون" وآخر سورة "البلد" وسورة البينة كلها، وكنت أتلخبط في آخر سورة العصر، كنت في كل مرة أنسى هل التواصي بالصبر أولًا أم التواصي بالحق أولًا.

وكانت ســـور "البينة" و"الليل" و"الغاشـــية" أصعب سور في حفظها، وكانت سورتا "القدر" و"الضحى" و"النصر" أسهل سور في حفظها.

حفظت في أوضة "الفاتحة" من أول سورة الفاتحة حتى سورة الانشقاق، ثم خرجت بعد الانشقاق من أوضة "الفاتحة" وجلست مع ابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة في الحوش الواسع الذي يفصل بين أوضة "الفاتحة" وبين بيت الشيخ.

أتممت حفظ جزء "عم" وجزء "تبارك"، ووقفت عند اللوح الأول في سورة "التحريم"، وقال لي الشيخ عوض: سمع الماضي!

كنت أسير على سكة المسقى الشرقية مرعوبًا من زُخمة الشيخ وراسي يحفظ الماضي، كان الماضي قد قُسم إلى أربعة أجزاء: جزء من أول سورة "الناس" حتى سورة "الليل"، وجزء من أول سورة "البلد" حتى سورة "عم"، وجزء من أول سورة "عم" حتى سورة "الجن"، وجزء من أول سورة "نوح" حتى سورة "تبارك".

وفي كل جزء من أجزاء الماضي، ممنوع التوقف عن التسميع، وممنوع الخطأ في التسميع، وممنوع اللحن في التسميع، وإلا نزلت عليَّ زُخمة الشيخ.

كنت أسير على سكة المسقى الشرقية وأدعو الله أن أفلت من زُخمة الشيخ، وكنت أفكر في الخطوط الحمراء التي تركتها الزُّخمة على ظهر محمود وردة، وكنت اعتقد أن عفريتة محفوظ سوداء مثل زخمة الشيخ.

حين وصلت إلى المكتب كان الشيخ سفاية يرتدي جلابيته البيضاء وطاقيته البيضاء ويقف بجوار الشيخ، وكان الثلاثة المنكمشون يقفون أمام الشيخ ويسمِّعون الماضي، وكان الشيخ يفتح فمه ويغلقه مع تسميع الثلاثة، ثم توقف فم الشيخ عن الحركة وقال لي: سمِّع سورة "القارعة".

وقلت: "القارعة".. "القارعة".

وسكتُّ، وقلت: "بسم الله الرحمن الرحيم" "القارعة".. "القارعة".

وسكتُّ.

وقبل أن تنزل الزُّخمة على ظهري، دوى صراخ أهل العزبة وصياحهم، وصرخ الشيخ سفاية: العفريتة خبطت عيل عند الجميزة!

كانت عيناه تبرقان وفمه مشدودًا طبعًا! ولم أعد أذهب إلى مكتب الشيخ.

7

أعطتني أمي مخلة قماش، وصرة بها عيش وجبن وطماطم وخيار، ووصفت لي شكل العلامة، ثم قالت لي: اذهب.

عندما خرجت إلى الشارع كانت الشبورة نازلة، وكنت لا أرى البيوت ولا أرى الناس، ولا أرى أحدًا، كنت أرى الأرض التي أخطو فوقها فقط، وحين اقتربت من الترعة سمعت صوتًا يقول: هش هنا.

والتفت ناحية الصوت ولم أرَ أحدًا. كانت الشبورة نازلة، وسمعت صوتًا يقول: يلَّا يا بت إنت وهيَّ.

وسمعت صوتًا يقول: اخلصي خلينا نسرح.

وكانت الشبورة الكثيفة تبلع كل شيء ولا أرى أحدًا.

عبرت الكوبري الخشبي المضروب على الترعة في أول الكفر، على اليمين وعلى الشمال وعبر الفراغات التي تملأ الكوبري الخشبي كنت أرى البخار المتصاعد من الترعة.

سرت ناحية الأرض الزراعية، وكانت المخلة القماش وصرة الأكل في يدي، وكنت أرى خطوات الناس والدواب معلمة في التراب المبلل بالندى.

عند الكوبري الخشبي الموجود في آخر الكَفر كانت الشبورة قد تلاشت، ورأيت الفلاحين والفلاحات والحمير والكلاب والعيال تمضي كلها في طريقها إلى الغيط.

كان العيال كلهم أكبر مني سنًّا، وكانوا يؤكدون لي على شكل العلامة البُني والأبيض. وحين وصلنا حبس الأصولي وجدت شابًّا كبيرًا يحمل الدفتر في يده ويجلس عند رأس الأرض. كان الشاب ينادي أسماء من دفتره المفتوح، ولمَّا نادى اسم أبي، قلت: أيوه.

ونزلت الأرض.

وضعت صرة الأكل في الحمال وربطت المخلة على وسطي وأحنيتُ ظهري، واستلمت الخط. كنت أقلب شجرة القطن ناحية اليمين وأفتش، ثم أقلب شجرة القطن ناحية اليسار وأفتش، وحين أجد العلامة أقطف الورقة كلها، وأضعها جوه المخلة، ثم أرجع وأفتش في شجرة القطن.

وفجأة، أصبح الولد الذي كان عن يميني ملاصقًا للبنت التي كانت عن يساري ولا خط لي، وانتبهت، ورفعت ظهري وأنا لا أعرف ماذا أفعل، ورفعت الفرقة كلها ظهورها عن الخطوط.

وقال الولد: **خطي انقطع.**

وردت البنت: **اربط.**

وقالت الفرقة: **اربط على...**

وقال الولد: **البنا...**

وقالت الفرقة: **اللي بنى وعلا.**

يا طالع الشجرة

هات لي معاك بقرة

البقرة هندية

تحلب وتسقيني

من الكوباية الصيني

والكوباية انكسرت

يا مين يداويني

دخلت بيت اللـه

لقيت حمام أخضر

بيلقط السكر...

بعد أن انتهت الأغنية، انكببنا على الخطوط، وكان الشاب صاحب

الدفتر يختلس النظر إلى البنت التي كانت بجواري ويهمس لها: أعطني قبلة!

وكانت البنت تزغر له ولا تعطيه شيئًا، واضطر الشاب إلى رفع صوته وهو يقول: أعطني قبلة!

وسمعته الفرقة كلها، ووضع ولد رأسه في الأرض وقال: أعطني قبلة.

ووضع ولد آخر رأسه في الأرض وقال: أعطني قبلة.

وزاد الهرج، ثم سكتت الفرقة كلها حين سمعت صوت الموتوسيكل القادم، ونظرت إلى السكة حين قالت العيال: المهندس عبد الصمد.

ترك المهندس عبد الصمد الموتوسيكل التايواني الأحمر على السكة وجاء علينا. كان ضخم الجثة وشعر رأسه وحواجبه لونهما أصفر.

راجع المهندس عبد الصمد الأسماء في الدفتر، ثم انطلق بالموتوسيكل التايواني الأحمر وابتعد، وعاد الهرج من جديد.

في نهاية اليوم كومنا العلامات فوق بعضها على السكة، ثم حرقها الشاب الذي صار يسمى خارج الدفاتر الرسمية "شريف قُبلة".

8

دخلت البيت وكانت أمي جالسة أمام الكانون، وكانت حلة كبيرة فوقه، والرماد والسخونة تحتها. كان وجه أمي أحمر، والإيشارب محسور عن شعرها الأسود الناعم، وكان بخار الماء يزيح غطاء الحلة لأعلى، ثم يتراجع، ويعود يزيحه، ثم يتراجع، وكنت أرى الرماد والنار المختبئة تحته، وكنت أقول لأمي: اغرفي لي.

وقالت لي: اصبر.

قلت لها: جعان.

وقالت لي: المغرب هيأدن وناكل كلنا.

وقلت لها: جعان.

رفعت أمي غطاء الحلة وتصاعد البخار متهورًا ومندفعًا حتى دنا من السقف. كان في الحلة محشي، وكان المحشي مطبوخًا من ورق الخس والأرز، وكنا نسميه "دوالي"، كان على هيئة مثلثات خضراء جميلة، وكنت أحبه، وكانت أمي تعرف أنني أحبه، وكنت أنظر داخل الحلة وكانت أمي تنظر إليَّ، في النهاية وضعت أمي يدها في الحلة ثم أخرجتها على عجل، ثم نفخت فيها، ثم وضعتها ثانية في الحلة واقتربت برأسها من الحلة ونفخت فيها، أخذت أمي ثلاثة مثلثات من

محشي الدوالي ووضعتهم في غطاء الحلة، وحطتهم أمامي، وكان البخار يتصاعد من كل مثلث، وكنت أحس بسخونة المحشي بين أصابعي وداخل فمي، وكنت أنفخ، كنت أحاول أن أهدئ السخونة التي في فمي، وكانت أمي تنظر إليَّ وتسألني: استوى؟

وكنت أنفخ وأقفز قليلًا لأعلى ولا أجيب.

نهضت بعدما أكلت المثلثات الثلاثة، والتقطت أمي الغطاء وغطت الحلة، وكانت تسألني وأنا أغادر من أمام الكانون: استوى؟

دخلت الأوضة المطلة على الشارع، وكان جهاز التسجيل الناشيونال الأسود محطوطًا على الكنبة التي بجوار الباب، وكان المسند القطني يفصل بينه وبين الجدار، وضعت فيشة الجهاز في الكهرباء وحركت المؤشر، وسمعت تمثيلية "أيوب المصري"، كان الرجل يقول: إداري يا ناعسة، رجالة عمارة جايين.. أنا هاروح أدور على أيوب.. إديني أمارة منك.. خصلة من شعرك.

وكان الرجل يقول: شعرك راح فين يا ناعسة؟! بعتيه؟!

وكنت أرى رأس ناعسة الأصلع، وأسمع صوت أحصنة رجال عمارة الذين جاءوا للبحث عن أيوب، وأرى رجال عمارة وأحصنتهم تقترب من الخيمة التي فيها ناعسة وابن خالتها.

كانت صور التمثيلية الإذاعية تتحرك في دماغي، وأمي تقف على باب الأوضة وتأمرني: روح صلي.

وكنت أسمع التمثيلية ولا أريد أن أصلي الآن، وكانت أمي تقول: سيدك هيضربك.

وكان صبري أبو علامة يصدح بالأذان من الجامع البحري، وكنت أعلي صوت الراديو كي أغطي على صوت صبرى أبو علامة وأسمع التمثيلية، وكانت أمي تقول لي قبل أن تسحب رأسها من الأوضة: هدي، ولما التمثيلية تخلص، روح صلي.

حين خرجت من الدار بعد انتهاء التمثيلية، كان صوت الشيخ طلعت الحصري يملأ الكَفر وكنت أجري في الشارع الكبير كي أدخل الجامع قبل أن يراني سيدي وهو خارج منه، وكانت صور أيوب وناعسة وأبطال التمثيلية كلها تتحرك في دماغي على طول الطريق إلى الجامع.

حين دخلت حمَّامات المسجد البحري، سمعت صوت الشيخ طلعت الحصري يقول: السلام عليكم ورحمة اللـه، السلام عليكم ورحمة اللـه.

بعد صلاة المغرب، كنت واقفًا على سلم الجامع البحري، وكانت العيال تحكي عن التمثيلية التي ستبدأ بعد دقائق، وكانت صور ناعسة وأيوب المصري تتتابع في دماغي ولا أعرف شيئًا عن التمثيلية التي ستبدأ بعد دقائق.

طار العيال كل واحد إلى بيته، ومشيت لوحدي في الشارع الكبير.

حين اقتربت من بيت العرب الذي في أول شارعنا، كان صوت تليفزيون القهوة - المواجهة لمدخل الشارع - يدوي. كنت قد أبطأت الخطو وبعدت عن الشارع، واقتربت من القهوة، ووقعت عيناي على شاشة التليفزيون الزرقاء ولم تفلتاها، كان التليفزيون كبيرًا وإطاره خشبيًّا، وكان محطوطًا على حامل حديدي مثبت في أعلى الجدار وقريبًا من السقف. كانت عيناي على الشاشة وكنت أسمع الصوت وأرى الصورة وأنا مندهش.

تسللت داخل القهوة، وجلست على طرف دكة خشبية موضوعة بجوار باب القهوة، وكنت أرى الصورة وأسمع الصوت وأنا مندهش، ومرة واحدة وجدت صاحب القهوة واقفًا فوق رأسي ويقول: يا تشرب حاجة، يا تغور من هنا!

خرجت من القهوة، ووجدت محمود وردة واقفًا على بابها، كان يسحب نفسًا من عُقب سيجارة، ثم ناوله لي، ثم تعلقت عيناه بعربة خارجة من الكفر وجرى وراءها، ثم رميت عُقب السيجارة وجريت وراءه، وتشعبطت في العربة معه.

كان الظلام يسيطر على العالم خلف العربة. كنت أنظر إلى الكفر ولا أرى شيئًا، وكنت أنظر تحت العربة ولا أرى شيئًا،

وكنت أنظر عن يميني وعن يساري ولا أرى شيئًا، وكان محمود وردة لا يتكلم.

جاوزت العربة الطنبوشة والمصلية وعند الجميزة توقفت، ثم نزل السائق وقال: يا ولاد الكلب!

ثم ظهرت الأنوار الأمامية للعربة وابتعدت واختفت، وكنت أرى ظلامًا، وكنت أجهل الطريق في هذا الظلام، كنت أتحسس بيدي الطريق حتى اصطدمت بشيء، وقبل أن أقول له شيئًا، ظهر الشيخ "سفاية"، كان يجلس على فرع الجميزة، وكان يلبس جلابية بيضاء وطاقية بيضاء، وكان يأكل الجميز ويهز رجليه، ثم رمى بالجميز لي.

9

عندما قال الصوت: كان يا ما كان.

تذكرت الشيخ سفاية وجلابيته البيضاء وطاقيته البيضاء، ثم ركزت بكل جوارحي مع الصوت الذي قال: كانت الأرض كبيرة ومنبسطة، وعلى طول كبر الأرض وانبساطها لم يكن بها غير أوضة واحدة، كانت جذوع الأشجار بائنة فوق بابها، وكان القش

والحطب الشامي والحطب فوقها، وكان بابها الخشبي مائلًا، وكان داخل الأوضة ثلاثة إخوة وحمار، وكان المقطف والغبيط والفأس محطوطين وراء الباب الخشبي المائل بجوار الحمار.

وكان أكبر الإخوة يسمى "عويل"، كان له شنب أبيض ولحية بيضاء نابتة، وكان قصيرًا وتخينًا تُخن مرض، وكان أصغرهم يسمى "فهلوي"، كان له شنب أسود، وكان طويلًا ورفيعًا رُفع مرض، وكان اسم أخيهم الأوسط "غلبان"، وكان مستيقظًا، وكان عويل يقول لأخيه فهلوي وهو نائم: قوم اسرح.

وكان فهلوي يقول لأخيه عويل وهو نائم: قوم اسرح.

وكان الاثنان يقولان لغلبان الجالس بجوارهما: اسرح انت.

وكان غلبان يقول: كل يوم أسرح لوحدي؟!

وركب غلبان الحمار، ووضع الفأس والمقطف أمامه وسرح.

كان يحرث وحده، ويزرع وحده، ويحصد وحده في الأرض الكبيرة المنبسطة، وكان عويل وفهلوي يشاركانه ما حصده.

ومرة رجع غلبان إلى الأوضة بعد يوم عمل شاق وطرد أخويه منها، وأصبح وحيدًا في الأوضة ووحيدًا في الغيط.

كان غلبان يلوم نفسه على ما فعله مع عويل وفهلوي، كان يقول: لو يرجعان، لو يرجعان.

وحين رجعا، كان عويل يحمل كُتبًا في يده، وكانت يد فهلوي خالية من الكتب طبعًا. كان غلبان يطلب منهما المساعدة ويقول: إيديكو معايا.

وقالا له: نساعدك، من غير ما نمد إيدينا.

حدد عويل لغلبان مواعيد الحرث والبذر والري والحصاد، وعرفه فهلوي أنواع الماء وكميته في كل رية، وكم يحتاج كل عود من أعواد النبات في الرية، وقال له فهلوي: الزرع يتقسم ثلاثة أكوام، كوم لأخيك وأشار إلى نفسه، وكوم لأخيك وأشار إلى عويل، وكوم لك.

حين قسمت الأرض ظهر غلبان قال له عويل: تزوج.

وقال له فهلوي: العيال تساعدك وتشيل عنك.

أخذ عويل وفهلوي كوم غلبان وزوجاه من ألف امرأة، وكبرت الأرض أكثر، وانبسطت أكثر، وامتلأت بمئات الأوض، في كل أوضة كان ينام عيل من عيال غلبان مع امرأة، وفي كل أرض كان يعمل عيل من عيال غلبان مع امرأة، ولم يعد عيال غلبان ولا نسوانه يهتمون بأمر عويل ولا فهلوي.

وتزوج عويل من ألف امرأة، وتزوج فهلوي من امرأة واحدة طبعًا، وصارت شغلانة كل عيل من عيال عويل وعيل فهلوي، هيّ

هيَّ، نفس شغلانة أي واحد فيهم، كان كل عيل فيهم ينصح عيل من عيال غلبان نفس النصيحة عن طرق الحرث ومواسم البذر والحصاد، وكان عيل فهلوي يكلمهم عن أنواع الماء وكم تحتاج كل ورقة من أوراق النبات منه، وكان الزرع مقسمًا ثلاثة أكوام.

وفي مرة تمرد عيال غلبان ورفضوا إعطاء عيال عويل وعيل فهلوي أكوامهم، فأغرق ابن فهلوي الأرض، وقال عيال عويل وعيل فهلوي: ذنبنا!

واجتمع العيال كلهم، واتفقوا اتفاق رجالة أن يقسم الزرع ثلاثة أكوام، كوم لعيل عويل، وكوم لعيل فهلوي، وكوم لعيل غلبان، ومن يقدر من عيال غلبان على معرفة علوم عيال عويل أو عيل فهلوي سيتزوج منهم ويصبح منهم.

ومشى اتفاق الرجالة طريقًا وطريقًا، وعدى برًا، وعدى بحرًا، ومشى سككًا، وداس على غيطان وجاوز قصورًا، وراح وما جاش، وراح وما جاش، حتى وصل كَفرًا في دلتا، كان فيه ثلاثة إخوة، أسماؤهم، محمد وعوض وفهيم، محمد كان عنده أرض وكان يزرعها، وعوض وفهيم كانا عندهما أرض وكان محمد يزرعها.

كان عـوض يعلم الناس مواعيد الحـرث والبذر والحصاد في العزبة المجاورة للكَفر، وكان أهل الكَفر يرسلون عيالهم إلى عوض لتحفيظهم العلـم مقابل كوم معلوم من زرعهم، وحين حل الخراب

بـــالأرض والدور امتنع أهل الكَفر عن إرســـال عيالهم إلى عوض لتعليمهم علوم الحرث والبذر والحصاد، وطاف عوض الكفور والبلاد والعزب بعلمـــه كي يأكل، كان هذا حال عوض. أما فهيم، فقد أقام قعدة للسمر، وكان يضع بجوار القعدة برميل ماء، وأكوابًا وأعشابًا وموقدًا، وأول ما طلع الراديو اشتراه ووضعه في القعدة، وأول ما طلع التليفزيون اشتراه ووضعه في القعدة، وكان يمنع القعدة إلا إذا شرب الجالس مشروبًا.

وفي يوم جاء محمد إلى قعدة فهيم كي يستشيره؛ كان يشكو من الخراب، ومن كثرة العيال. فنصحه فهيم بإرسال العيال إلى عوض ولم يشربه مشروبًا.

واتفق محمد مع عوض أن يأخذ عن كل جزء من العلم كيلة قمح، وكيلة ذرة، وأربعة أشراش ثوم، وعشرة أشراش بصل، وفرخة شمورت كل أسبوع وبيضة كل يوم.

وصمت الصوت، وجريت على مكانه، ولم أجد له أثرًا، ثم ظهر سفاية، ورماني خارج الجميزة.

10

حين جاء محمود وردة كنت وحدي بالدار، كنا قبل صلاة الجمعة، وكنت أشرب من الزير، وكان هو يتكلم بلا توقف، ثم فتح فمه على آخره وضحك، وكان فمي مملوءًا بالماء، وكنت أريد أن أبلع الماء فلا أستطيع، وكنت أقاوم كي لا يخرج الماء من فمي. في النهاية، خرج خيط رفيع من فمي واستقر في فم محمود وردة، فتوقف عن الضحك، ثم خرجنا بعدها من الدار، وكان محمود وردة مستمرًّا في الكلام.

لم أكلمكم عن رائحة فم محمود وردة في هذا اليوم، كانت رائحة فمه كلها طماطم مخللة بالثوم والفلفل، كانوا هم البيت الوحيد في الكَفر الذين سمعت أنهم يأكلون وجبة طماطم مخللة بالثوم والفلفل. كان سيده يربيه، وسيده كان لا يذبح! في موسم سبعة وعشرين رجب، وموسم عاشوراء، وفي أول أيام عيد الفطر، وفي أيام عيد الأضحى الأربعة، كان يأكل سمكًا، لم يكن يشتريه، كان صيادًا بلا شبك، حين يقل الماء في الترع والمصارف والمساقي والقنوات ينزل إلى الماء، ويركع ويضع يده فيه، ثم يتسحب وهو راكع بهدوء وحذر تحت جسور الترع والمصارف والمساقي والقنوات، وكان يرمي السمك على السكة لابن ابنه محمود وردة.

وكان محمود وردة يريد أن نذهب لنصطاد سمكًا في هذه الساعة من يوم الجمعة، قال إنه سيقلد سيده وينزل إلى الترعة ويضع يده حتى عضديه في الماء ويتسحب، وسيرمي لي بالسمك على السكة.

كنا نسمع أصوات قرآن الجمعة من مساجد الكَفر ونحن نسير على شط الترعة، كنا نبحث عن مكان تكون الأسماك مستظلة به، وكنت أحكي له الحكاية التي حكتها لي أمي كي أنسى ما فعله حلمي الحلاق بالكرة. وفجأة توقف محمود وردة عن السير، كان وجهه لي وقفاه للترعة حين قال لي: تعال.

قلت له: على فين؟!

قال لي: تعال.

قال لي محمود وردة في الطريق إننا سنذهب إلى جرن "جبر"، وفي الطريق إلى جرن "جبر"، وجدنا عيالًا تلعب "خرطة جبنة محروقة في الشروقة". كانوا خمسة عيال، كل عيل يقف على كوم تراب ويكونون دائرة، وكان سادسهم يقف على كوم تراب في منتصف الدائرة، وكان الولد الذي يقف في منتصف الدائرة يقول: خرطة جبنة محروقة في الشروقة. فيتحرك كل عيل من العيال الستة من على كومه القديم ويبحث عن كوم جديد.

لعبت أنا ومحمود وردة "خرطة جبنة محروقة في الشروقة"

حتى تعبنا، فواصلنا الطريق إلى جرن "جبر".

ثم مررنا بعيل اسمه "حودة"، كان فحلًا وسمينًا وله كرش ومعه كرة، لعبنا مع حودة تنطيطًا على الرجلين، وتنطيطًا على الفخذ، وتنطيطًا على الرأس، وواحد في النُّص، وجون مشترك، وضربات جزاء، حتى تعبنا من اللعب مع حودة فواصلنا الطريق إلى جرن "جبر".

كانت نسمة هواء تهف من ناحية الجرن، وكانت قوائم المرميين منتصبة وبلا شباك، وكان هناك تل من التبن عند منتصف جرن "جبر" خارج الملعب، وكانت حيوانات كثيرة تحوم حول تل التبن، وقال محمود وردة: هناك أهوه.

ثم جرى عليه وجريت وراءه، وحين اقتربنا من الحمار، كان ولد نائم فوق البنت التي طلب منها "شريف قبلة" القبلة!

كانا قد انزعجا، وأصلحا ملابسهما، وثبتا في مكانهما دقيقة ثم انصرفا.

وكان حمار حكيم واقفًا في مكانه لا يتحرك، كان أبيض وقصيرًا ومعضمًا، ولا يوجد حبل في رقبته ولا بردعة على ظهره، وكان محمود وردة يقول للحمار وهو يمسك به من تحت بوزه: علشان تبطل!

ركبت وراء محمود وردة على الحمار، وكانت عظمة ظهره تؤلمني، وكنت أضع يدي على ظهره ثم أرفع طيزي بعيدًا عن عظمة ظهر حمار حكيم، ثم أعود وأضع طيزي عليها، ثم أعود وأتركها، ثم أعود وأضع طيزي عليها، وكان محمود وردة يقول خلال الارتفاع والعودة سبب هُزال حمار حكيم.

حين بنى حكيم عبد الرازق بيته لم يُقم زريبة فيه، وربط حكيم الحمار في عمود الكهرباء الذي في الشارع، فك حمار حكيم الرباط ومشى في الشارع، وأكل حمار حكيم من الشارع، وبال حمار حكيم في الشارع، وفَشل حمار حكيم في الشارع، واعتلى حمار حكيم كل حمارة تقابله في الشارع، حتى ساءت صحته. كان محمود وردة يقول: سيدي فيه صحة عنه!

وقلت له بعد أن توقف عن الكلام: ناخد كلبة محفوظة الأول.

لكنه قال لي: خليها الآخر، بيتها جنب الملعب الميري في طريقنا.

وصلنا نحن الثلاثة بيت فوزي اللاجئ، كان البيت قديمًا ومتهالكًا، وشبابيكه وأبوابه مغلقة، وكان هناك ممر مظلم بجوار البيت المتهالك والمغلق، وكنت أنا ومحمود وردة والحمار واقفين على مدخل الممر المظلم، وكان محمود وردة يقول: تعال ندخل.

وكنت أقول له: ادخل إنت.

في النهاية، سمعنا صوت المعزة في الممر المظلم ورأيتها خارجة منه، وكان وراءها فوزي اللاجئ، كان يحمل خرطومه الأحمر في يده، وكان يلبس جلابية سوداء، وكان الصديري باننا تحت الجلابية، وكان حاجبه الأيمن مرفوعًا لأعلى من عند منتصفه، وكانت على وجهه علامات حروق جديدة وعلامات حروق قديمة. كان فوزي اللاجئ يتقدم أفواج الموالد ويحمل الرايات، وكان لا يكف عن مشاركة اللاهين لهوهم. كان يضع الجاز في فمه ويمسك شعلة ويرفعها، وكان يحاول أن يقلد اللاهي ويخرج النار من فمه، فيحرق، كان يفعل ذلك في كل مولد من الموالد الأربعة التي يقيمها الناس للأولياء في الكفر: مولد الشيخ خالد، ومولد الشيخ العراقي، ومولد الشيخ موسى، ومولد الشيخ نُصير.

وكانت له معزة وكنا نحتاجها هي وكلبة محفوظة لتمثيل حكاية أمي! كنت قد خمنت أنهما الأنسب لدور المعزة والكلب في حكاية أمي، وحين حكينا لفوزي اللاجئ الحكاية قال: رجلي على رجلكم!

ركبت وراء محمود وردة فوق حمار حكيم، وكان فوزي اللاجئ يمشي بجوار المعزة. في الطريق إلى دار محفوظة، وجدنا عيالًا تلعب دناجل، فلعبنا معهم الخمساوية، والنقرة، وملك ولّا كتابة، وحين تعبنا واصلنا الطريق إلى دار محفوظة. كانت الدار قريبة

من الجرن الميري، وكانت مبنية بالدبش الأبيض ولها بوابة صاج خضراء وكبيرة، وكانت كلبة محفوظة تقف أمامها، كانت تنظر إلينا وتتقدم نحونا، وكان محمود وردة يدور بعينيه في المكان ويقول: مفيش حتة عضمة.

وكنت أفتش معه عن حتة عضمة، وكان فوزي اللاجئ يقف صامتًا هو ومعزته وحمار حكيم.

جرى محمود وردة على السكة وعيناه تفتشان في الأرض، ثم عاد وهو يحمل بطة ميتة، مد محمود وردة يده على طولها بالبطة، وكان يشيح برأسه بعيدًا ليتفادى رائحتها، ثم تقدمت كلبة محفوظة رويدًا رويدًا من البطة الميتة، وانطلقنا كلنا لتمثيل حكاية أمي.

كنا نبحث عن بئر ضرورية للحكاية، ويجب أن تكون البئر قريبة من السكة، ويجب أن تكون الأرض التي على السكة مزروعة بالغلة، وكان فوزي اللاجئ يضرب بالخرطوم الأحمر على الأرض ثم يجلس وراءه على الأرض، ويكلم أحدًا للحظات، ثم يقوم من على الأرض ويمشي، وكانت المعزة تسير بجواره ناحية الترعة، كان شعر المعزة أسود من على الظهر، وأحمر من على البطن، وأسود فوق الرجل وبين القرنين وعلى الرقبة، وناحية الأرض كانت كلبة محفوظة تسبقنا بخطوات، ثم تقف وتلتفت للوراء إلينا، ثم تسبقنا بخطوات ثم تقف وتلتفت للوراء إلينا.

وكان فوزي اللاجئ يضرب بخرطومه على الأرض، ثم يجلس وراءه على الأرض، ويكلم أحدًا للحظات، ثم يقوم من على الأرض ويمشي، ثم ضرب فوزي اللاجئ بخرطومه على الأرض، وجلس وراءه على الأرض، وكلم أحدًا للحظات، ثم قام، وقال: أنا عارف البير!

كانت نسمة هواء عليلة قادمة من كل اتجاه، وكانت الأرض خضراء في كل اتجاه، وكنا نسير وراء فوزي اللاجئ ووراء معزته، فُتنا سككًا وجسورًا، عدينا برًّا، وعدينا بحرًا، ووصلنا سكة كانت الأرض التي عليها مزروعة بالغلة، ووقفنا كلنا عند البئر التي وقف عندها فوزي اللاجئ ومعزته، كان حمار حكيم مستكينًا وينظر إلى البئر، وكانت كلبة محفوظة ترفع عينيها للسماء ورأسها للبئر، وكانت معزة فوزي اللاجئ منكسة رأسها في البئر، وكان فوزي اللاجئ مُصرًا على أن يلعب هو دور صاحب الأرض، واضطر محمود وردة أن يتوجه بالكلام إليه معترضًا: أنعامي لم تأكل من الأرض!

وكان فوزي اللاجئ يمسك بأعواد الغلة المقطوفة السنابل ويمدها في وجهه ويقول: لأ.. أكلت.. لأ.. أكلت.

كان محمود وردة ينظر إليه بتعجب، وكان فوزى اللاجئ يتحسس جسد المعزة ثم أمسك بقها، ثم تحسس جسد الحمار وأمسك بقه، ثم تحسس جسد الكلب ومسح على بقه، وكان يقول وهو يرفع يده: شايف، شايف!

وكان محمود وردة ينظر إليه ويعترض: أنعامي لم تأكل من الأرض!

رد فوزي اللاجئ: نحلفهم.

وكان محمود وردة ينظر إليه بتعجب ويقول: نحلفهم؟!

قالت المعزة: ماء، إن كنت كلت ولّا شربت، يرميني ربي في بير البريري.

وعدت البئر.

وقال الكلب: هوهو، إن كنت كلت ولّا شربت، يرميني ربي في بير البريري.

وعدى البئر.

وجاء حمار حكيم أمام البئر ونهق، ثم نهق مرة ثانية، ثم نهق مرة ثالثة ولم ينط، قال الحمار: أنا اللي أكلت الغلة.

واقتربنا كلنا من الحمار، ونظرنا داخل البئر. كانت البئر مظلمة وساكتة، ولم نكن نرى ماءً فيها، وكان محمود وردة يرمي البئر بالطوب، وكانت الطوبة تغيب وتغيب ولا يُسمع لها صوت، وكان فوزي اللاجئ يقول: سامعين صوت الطوبة؟

وكنا نقول له: لأ!

كان محمود وردة يرمي البئر بالطوب، وكانت الطوبة تغيب، وتغيب، ولا يُسمع لها صوت، وكان فوزي اللاجئ يقول سامعين صوت الطوبة؟

وكنا نقول له: لأ!

في النهاية، خلع فوزي اللاجئ جلابيته وأصبح بالفلنة والصديري واللباس، ثم نزل البئر والخرطوم الأحمر في يده، وكنا نقول له: الحكاية خلصت.

وكان فوزي اللاجئ مستمرًّا في الهبوط إلى قاع البئر حتى اختفى!

كانت معزة فوزي اللاجيء منكسة رأسها إلى البئر، وكانت كلبة محفوظة تهز رأسها ورقبتها، وكان حمار حكيم مستكينًا، وكنت أنادي أنا ومحمود وردة داخل البئر: يا فوزي.. يا لاجئ.. يا فوزي.. يا لاجئ.

ويرتد الصوت إلينا.

جاء العصر ونحن جالسون عند البئر، ودخل المغرب ونحن جالسون عند البئر، وقبل أن تليل الدنيا تركناه في البئر ورجعنا. جاءت الكلبة معنا، وجاء الحمار معنا، وظلت معزة فوزي اللاجئ واقفة عند البئر ومنكسة رأسها فيه وترفض المجيء.

11

غرة شعره البيضاء كانت في المقدمة على اليمين، وكان طويلًا ونحيلًا، وكان نظره على الأد، وكانت زوجته تُحركه، كانت تقول له يمين فييمن، وكانت تقول له شمال فيمشي في الشمال، كانت تغمز له أثناء الكلام فيتوقف عن الكلام، وكانت تقول له: صح ولّا لأ يا أبو إسماعيل؟

فيتكلم. كانت تقول له: اقسُ على الولد، أبوه غريب وأمه مِرقة!

كان يحضر الطماطم ويأمر أم محمود وردة أن تفتحها وتحشوها بالثوم والفلفل والملح والخل، وكان يضع الطماطم وحدها على الطبلية ويقول لهما: كُلا!

كان يمنع العيش والخضار والماء عنهما، وكان يقول لهما: كُلا!

كان يأمرهما أن لا تبقى على الطبلية طماطماية واحدة، بعدها يسمح لهم بأكل العيش وشرب الماء.

كانت زوجته تقول له: اخرج مارس عادتك القديمة.

فيقول لها: تعبت من أكل السمك.

فتقول له: اخرج مارس عادتك القديمة.

فيُصر على أخذ محمود ابن ابنه إسماعيل معه.

وكان العجوز صاحب الغرة يصر على بقاء الولد صاحب الغرة واقفًا على السكة في عز القيالة، كان يأمره بالوقوف في الشمس، وكان محمود وردة لا يتحرك من مكانه على السكة إلا باتجاه الصيد الذي رماه سيده له، كان العجوز صاحب الغره يسأل محمود وردة عن عدد الصيد، وعن نوعه، كم مشطًا، وكم قرموطًا، وكم زعلوكًا. وكان يسبه بأمه طول الصيد، وبعد الصيد، وعلى طول سكة العودة من الصيد، وعلى باب الدار.

كان يمنعه من الذهاب إلى الملعب، وكان يأتي إلى الملعب ويخرجه منه، كان يضربه بالكف على صدغه الأيمن، ويضربه بالكف على صدغه الأيسر، ثم يضربه بالكف على عينيه، ثم يضربه بالشلوت، وباللكمية وبالجزمة فوق رأسه، وكان محمود وردة لا يصرخ ولا يبكي ولا يُنزل دمعة، كان يرجع وراء سيده إلى الدار، وكان سيده يسبه بأمه على طول سكة العودة إلى الدار، وعلى باب الدار.

كان يأمره أن يسحب الجلة من تحت البهائم، وكان يأمره أن يفرش التراب تحت البهائم، وكان يأمره أن يسرح ويحش برسيمًا للبهائم، وأن يحط برسيمًا للبهائم، كان يأمره أن ينام بعد العشاء، وكان يصحيه وراء الفجر ويأخذه معه إلى الغيط، وكان يشقيه في الغيط من النجمة حتى غروب الشمس، وحين يجد محمود وردة

فرصة للتملص من سيده يتملص، ويأتي إلى الدار ويسأل عني. وكان يقرأ عليَّ وأنا وهو جالسان على المصطبة بره في الشارع، التمثيلية التي يريد أن يمثلها عن سيده، وكنت أقول له: مستحيل!

بعد أسبوع تملص من سيده وجاءني، كان يقول: هند تمثل دور ستي، وابن الناظر يمثل دور سيدي.

وقلت له: مستحيل!

بعد أسبوع جاءني وهو يحمل كيسًا أسود وضعه بيننا على المصطبة، ثم أخرج منه طرحة سته وبرطمان كُحلها، وأخرج منه - أيضًا - تلفيعة سيده وطاقيته، وأخرج منه ذقنًا أبيض وشاربًا أبيض مأخوذين من شعر معزة، ثم وضع يده في الكيس وخرجت كفه مغلقة منه، وحين فتحها كانت غرة شعر سيده البيضاء مستقرة فوقها.

12

أنهيت لعب الكرة قبل المغرب، ودخلت البيت لأتابع التمثيلية، حركت مؤشر الراديو، نزعت الفيشة وأدخلتها وحركت المؤشر ولم يصدر أي صوت عن الجهاز، كنت متشوقًا لمعرفة تتابع أحداث

تمثيلية "أيوب المصري"، دخلت أوضة سيدي ووضعت الفيشة وسمعت التمثيلية.

بعد أن انتهت الحلقة أعدت المؤشر إلى موجات إذاعة القرآن الكريم وخرجت من الغرفة.

حين عرف سيدي ما فعلت، طلبني للسؤال، سألني في البداية: إنت غيرت المحطة؟

ثم شدني من ذراعي، ثم لكزني، وبقيت صامتًا في البداية، وبعد الشد وفي أثناء لكزه لي، كانت قبضة يده اليمنى مشدودة وإبهامه مشدودة فوقها حين دفعها في جنبي، فوق كليتي مباشرة، ثم أمسك ذراعي وضغط، ثم كز على أسنانه وضغط، وكز على أسنانه وبرق، وقال لي: بُكرة تروح مكتب الشيخ طلعت الحصري.

13

كان مكتب الشيخ طلعت الحصري في قلب بيته، وكان في قلب البيت نخلة، وكان حولها مصاطب، وكانت العيال تجلس علي المصاطب وفي طرقات البيت وفي أوضه، وكان الشيخ طلعت يجلس على كرسيه وراء باب البيت.

كان للشيخ طلعت الحصري صوت أنثوي رائق، وكانت ملامحه

دقيقه وعيناه مغلقتان دومًا، لم يكن الشيخ طلعت يحمل زُخمة، كان يعاقب بالحصى، كان يمسك العيل من ذراعه بيد واليد الأخرى تضع الحصوة تحت شحمة الأذن وتضغط.

كان المكتب يحفظ كله من أول سورة البقرة، وكنت أحفظ على طريقة الشيخ عوض بالعكس. كنت أصحح وحدي، وأحفظ وحدي، وأُسمّع وحدي.

مات الشيخ طلعت وأنا في سورة "قد سمع"، وكنت ألعب في الشارع عندما مرت جنازته من الشارع الكبير، فتوقفت عن اللعب ووقفت في بلكونة بيت العرب، ورأيت النعش والغطاء الأخضر الذي عليه الآيات، ورأيت ابن الشيخ الكبير يبكي، ثم عُدت للعب مرة أخرى.

14

بعدما هُدم بيتنا المبني بالطوب النيء سكن سيدي وستي عند أحد الجيران، وانتقلت أنا وأمي وإخوتي إلى بيت جدي، كان للبيت سلالم أسمنتية ومدخله مبلط، والبيت من الداخل كان فيه ثلاث غرف مفروشة بألواح الخشب، منها الغرفة المطلة على الشارع التي ولدت بها، وكانت غرف المعيشة والمطبخ والحمَّام، والصالة، مسفلتة بالأسمنت والرمل.

كانت خالتي الكبرى قد تزوجت، وخالتي الوسطى قد تزوجت، وخالتي الصغرى كانت في دبلوم التجارة. لم نسكن أيًّا من غرف البيت المسفلتة. كانت ستي قد جهزت لنا غرفة لنسكنها أمام الغرفة الداخلية التي تربي فيها الطيور، كان هناك سرير لأمي وأختي، وكنبة لي، وكنبة لأخي، ولم يكن للغرفة شباك؛ كان لها باب آخر يفضي إلى الشارع، وكان متسمرا بخشبة واحدة تمسك بضلفتيه، وكنا نأكل وحدنا ونشرب وحدنا ونجلس وحدنا في الغرفة الداخلية، ولم نكن نخرج خارج الجزء الداخلي المعد لتربية البط والفراخ والإوز والبط والأرانب إلا للضرورة.

كانت خالتي لو رأتني في أيّ جزء آخر من بيت أبيها البكّاء تنعقد القورة وتقب المناخير. وكنت أحوم حوله، كنت أسترق السمع إليه، وكنت أسترق النظر إليه، وكنت أبكي في الليل داخل الغرفة المقابلة لغرف البط والإوز والفراخ على هذا التليفزيون.

كان التليفزيون أبيض وأسود، وكان أربع عشرة بوصة، وكان محطوطا بالصالة المطلة على المدخل المبلط، وكانت خالتي الصغرى تتابع الأفلام والمسلسلات، كانت تظل لساعات وساعات جالسة أمام التليفزيون حتى تتأكد من أننا نمنا، فتقوم وتنام.

ومرة، بقيتُ مستيقظًا ومتخفيًا وراء باب الحظيرة، وكنت أسمع صوت التليفزيون وأراقب أقل همسة عن خالتي، حين صمت صوت

التليفزيون ودخلت خالتي غرفتها، تسحبت على أطراف أصابعي ودخلت الصالة وأغلقت بابها، ووطيت الصوت، وأشعلت التليفزيون وجلست على قرافيصي على الأرض تحته، ومرة واحدة، وجدتها فوق رأسي، أشعلت النور، وأطفأت التليفزيون، ثم أطفأت النور وصكت باب الصالة، وحين عدت إلى الغرفة المقابلة لغرف البط والإوز والفراخ كُنت أبكي على هذا التليفزيون.

في مرة، تقدمت أنا وأخي وسط الظلام والسكون ودخلنا أوضة التليفزيون، أخي حمل التليفزيون وأنا حملت المحول الرمادي، ثم أخذناه إلى غرفتنا، ووطينا الصوت، وظللنا نتفرج طول الليل على التليفزيون، ثم أرجعناه هو والمحول مكانهما قبل أن ننام.

في مرة، سرقنا النوم وصحونا فزعين، لكننا لم نجد للتليفزيون ولا للمحول أي أثر، قال أخي: إنت رجعتهم؟

قلت: لا.

وقلت: إنت رجعتهم؟

قال: لا.

سألنا أمي وسألنا أختي لكنهما قالتا: إيه اللي هيجيب التليفزيون هنا؟!

لم نلاحظ على تعبيرات وجه خالتي المشمئزة منا أي زيادة،

ولم أهتم بالتفتيش عن الإجابة، حين عرفت أمي وأختي بالسر ظلتا مستيقظتين حتى أحضرنا التليفزيون والمحول وشاهدنا الفيلم، كان اسم الفيلم "أفواه وأرانب"، وبعد أن انتهى الفيلم حمل أخي التليفزيون وحملت المحول ثم خرجنا نتسحب على أطراف أصابعنا في السكون والصمت، تكعبلت في شيء كان ملقى على الأرض وحدثت جلبة، أضاء النور بعدها على الفور، ونظرت أنا وأخي ناحيته، كان جدي البكاء واقفًا بصلعته الكبيرة على باب غرفته ينظر إلينا، ولم ينطق حرفًا أو يلقِ علينا نظرة لوم واحدة، لكنه ظل يبكي!

15

يوم الصبة الكبيرة، صبة السقف، اشترت أمي عشرين فرخة، وذبحتهم جدتي. رأيت الفراخ كلها عارية من الريش وبلا رؤوس أو أقدام، وكانت كلها فوق بعضها في طشت العجين، وكانت الرؤوس والأرجل في حلة، وكانت المصارين في حلة، وربطت الأرجل المقطوعة بالمصارين المفتوحة ووضعت الفراخ المذبوحة كلها في قدرين هائلين على الكانون.

حين استوى الأكل، حملت أمي صينية، وحملت ستي صينية، وحملت أختي صينية، وكنت أنا وأخي وراءهن نحمل شنطة العيش

وطرمس الشاي، ونتجه إلى العمال التي تصب السقف.

كان صوت الخلاط وأصوات العاملين يدوي في الشارع، وكانت عيون العمال والأقارب والحبايب متعلقة بالصواني ونحن نقترب من الدار، وحين وضعت الصواني على الأرض، ورُفع الغطاء عن الحلل والأطباق والملاعق، هدأت الأصوات كلها وتكونت حلقات في الشارع، كان أمام محل حلمي الحلاق حلقة، وأمام أعمدة بيتنا حلقتان، وكان المارة يذهبون، وكان المارة يجيئون وهم يقولون: بناية بعمارة.

ذهبت إلى جرن العمدة وتركتهم يأكلون، وكانت رغبة ملحة في الذهاب إلى الحمَّام تراودني وأنا ألعب، لكني حبستها واستمررت في لعب الكرة، ثم راودتني نفس الرغبة في الذهاب إلى الحمّام بعد خروجي من الملعب، لكني كنت مستغرقًا في الحديث عن الكرة وحبستها.

عدت إلى بيت جدي قبل المغرب، وكانت تفصلني عن سلالم البيت خطوات، وكنت أحبس رغبتي الملحة في الذهاب إلى الحمَّام، جريت، وشعرت أن مقاومتي ستنهار، فهرولت، وأحسست أن مقاومتي ستنهار، فمشيت بحذر وتؤدة، وكان العرق قد ملأ جسمي، وعرفت أنني لن أستطيع أن أغلق طريق البراز فهرولت مرة أخرى، ثم توقفت، وكانت قطعة براز قد سقطت على أول درجة

من سلم بيت جدي، وكانت خالتي الصغرى أول شخص أقابله، لم تكن وحدها، كانت برفقة صديقتها خارجتين من البيت. حين خلعت البنطلون في الغرفة الداخلية كنت أسمع صوت خالتي وهي تسبني وتلعنني، وكانت رائحة البراز طاغية على كل شيء.

16

كان جرن العمدة هو أول جرن لعبت فيه، كان بجوار القهوة التي في الشارع الكبير، وكان جدار أسمنتي يقف خلف المرمى القريب من القهوة، وكان في نهاية الملعب ترعة الكَفر، وكانت شجرة كافور عظيمة نائمة وراء المرمى القريب من الترعة، وكانت الكرة تقع في الترعة باستمرار، وقال عيل: نروح نلعب في الجرن الميري.

كان المكان الذي أخذنا فيه قرارنا باللعب في الجرن الميري هو الحمَّام الأول من حمَّامات المسجد البحري، وكان اليوم يوم الجمعة، كنا أربعة عيال، وكنا متحمسين للقرار ومشغولين بالميعاد.

دخلنا نحن الأربعة نفس الحمَّام والكرة معنا قبل الجمعة، كان أحدنا يجلس على الحجرين ويشُخ، وكان الذي يشُخ يتدخل في الكلام مع الثلاثة الواقفين. كنا نرتب فريقنا داخل الملعب. كنا نتكلم عن اللاعبين الذين سنضيفهم إلى فريقنا، ونتكلم عن الفريق الخصم.

كنا نحدد من سيمسك من، ومن سيلعب الأوت، ومن سيلعب الفاول، ومن سيرفع الكورنر. وحين انتبهنا لصوت الخبط على الحمَّام، كان المؤذن يرفع أذان الجمعة، وكنا نسمع أصوات الناس الواقفة على الميضة، وكنا نسمع صوت خرير الماء، وكان أحدهم يسب: عيال ولاد كلب!

وكان آخر يسب: عيال ولاد كلب!

وكان باب الحمَّام مغلقًا بالترباس، وطاقة خلفية في الحمَّام مفتوحة.

لم يكن أحد منا الآن جالسًا على الحجرين، كنا نحن الأربعة ومعنا الكرة نقف في الحمَّام ونبحث عن مكان للخروج، صعدت طاقه الحمَّام وحاولت الهرب، وحين وقفت فيها كان صبري أبو علامة يقف لي على الأرض ويقول: انزل.

كانت له حسنة كبيرة سوداء بجوار أنفه، وكانت عينه باظة، وكان يشير إلى الأرض بإصبعه ويقول: انزل يا ابن الكلب!

كنا نحن الأربعة في قبضة صبري أبو علامة أمام الحمَّام الأول، وكان أناس يدخلون إلى الحمَّامات، وأناس يخرجون من الحمَّامات وهم يسبون العيال ولاد الكلب.

كان صبرى أبو حسنة سوداء كبيرة بجوار أنفه يمسك بكل اثنين منا في يد، وكان يضرب برجله اليمنى في الاثنين اللذين على

اليمين، ثم يضرب برجله اليمنى في الاثنين اللذين على اليسار، وكنا نحن الأربعة نحاول تفادي رجله اليمنى والتملص من يده.

حين ضربني ببوز جزمته الجلدية السوداء في ركبتي سقطت على الأرض، وارتطمت ركبتي اليمنى بالبلاط وكنت أصرخ من الألم.

تركني عامل المسجد من يده وهو ينظر إليَّ، ولم يتوقف عن ضرب الثلاثة الآخرين، وكنت أصرخ من الألم، وسمعت أحدهم يقول: اجرِ.

وحاولت الوقوف، إلا أنني صرخت من شدة الألم.

وحين قال أحدهم وهو خارج من الحمَّام ورافع جلابيته فوق كتفه ولباسه الأبيض تحت ركبته: كفاية! ترك عامل المسجد الثلاثة الآخرين.

كان إمام المسجد يخطب خطبة الجمعة، وكان صوته يجلجل في الميكروفون، وكنت أنا وأصدقائي الثلاثة خارج المسجد، وكانت ركبتي اليمنى عارية ومتورمة، ووضع أحدهم إصبعه على الورم وهو يقول: بوز جزمته.

وكان الآخر يقول: من الوقعة على البلاط.

ونسينا اللعب في الجرن الميري.

17

تحاملت على العيال، وابتعدت عن المسجد قبل خروج المصلين، لم أرجع إلى البيت، ذهبت إلى المصلية المضروبة على جسر المسقى الشرقية ومددت فيها.

كان الألم يهدأ وأشعر بالشفاء، لكن ما إن أحاول النهوض حتى أتهاوى على الأرض من جديد، وكنت أصرخ من شدة الألم في ركبتي اليمنى.

دخلت البيت بعد المغرب وكانت أمي تسألني: مالك؟

وكنت أخطو في المدخل وأنا أزُك على قدمي اليمنى، وأقول: ما فيش حاجة.

قالت لي أمي: مالك؟

وقلت لها كل شيء.

18

بعد العشاء، أخذني سيدي من يدي واتجه بي إلى بيت شيخ البلد، كان للبيت باب خشبي كبير، وكانت جدرانه حمراء وشبابيكه

أثرية، وكان شيخ البلد يجلس على مصطبته بجوار الباب الخشبي الكبير، كان جذعه مدفوعًا للأمام، وكان يرتدي على رأسه طاقية بيضاء شبيكة والفراغات فيها تكاد لا ترى، لم يكن يتكلم، كان يسمع الحكاية مني وأنا جالس بجواره، وحين أنهيت الحكاية بعث في طلب عامل المسجد أبو حسنة سوداء عند أنفه.

حين جاء عامل المسجد كانت الحسنة الكبيرة السوداء لا تزال هناك، وسأله شيخ البلد: ليه كده؟

وقال شيخ البلد: دول عيال!

ثم أمر شيخ الكَفر صبري أبو علامة أن يُحضر عربة.

19

دخلنا المدينة في الليل، وكانت المصابيح موقدة والناس تذهب وتجيء، وكنت أنا وسيدي والسائق وعامل المسجد في كابينة العربة ولا نتكلم.

دخلنـــا عيادة الدكتور في الدور الثالث، كان وجه الدكتور أحمر وأنفه طويلًا ومســـتقيمًا، وحين وقف كان رأسه الكبير غير ملائم لجســـده، كان يضغط بيده على ركبتي اليمنى ويســـألني عن الألم، وكان عامل المسجد يقص الحكاية عليه.

سأل عامل المسجد الدكتور: علاج بس يا دكتور؟

وسأله سيدي: هتعوز جبس؟

وكانت نظرات الدكتور موزعة بين عامل المسجد وبين سيدي وهو جالس على مكتبه والروشتات البيضاء عليها القلم ومحطوطة أمامه.

كنا نحن الثلاثة في كابينة العربة ولا نتكلم، وكان كيس العلاج معلقًا في يدي، وكانت ركبتي اليمنى تؤلمني، وحين دخلت العربة الكَفر كنت أفكر في الملعب الميري. وأصر سيدي على ذهابي إلى مكتب أرملة الشيخ طلعت الحصري رغم الجذعة التي في ركبتي.

20

البخت لو مال أعمل إيه أنا بإيدي

والوعد أصله انكتب

والأصل من سيدي

إحنا سمعنا مثل من اللي قبلنا قالوا:

واللـه إن ما عدله الإله ما تعدله إيدي

عدتُ من المكتب ومشيت في مدخل البيت، وكنت أسمع صوت غناء الفنان "عبده جاب اللـه"(*) وموسيقاه، وجدت المنقد وفوقه القوالح مشتعلة على باب الشقة، وكان أبي يقف في صالة البيت باللباس والصديري ويسلك غابة الجوزة بسلك رفيع، وكانت الجوزة النحاسية محطوطة في جركن بلاستيكي أحمر ومركونة على الكنبة التي في الصالة، وفوق الكنبة كان الكاسيت بجواره شرائط قصص وحكايات بلا نهاية، وكان الفنان عبده جاب اللـه يغني ويقول:

بيت الفلاح بيزيد في نجاح

بينمي الثروة الزراعية

ودكرنس بلد المحصول

فيه إنتاج للأرز مهول

والقطن العربي المغزول

ناجح يا ناس مية المية

سلم أبي عليَّ وقبلني، ثم تركته ودخلت المطبخ، كانت أمي تجلس على الكرسي الخشبي القصير، وكان أمامها الوابور أبو شرائط وبراد الشاي فوقه، وكان الفنان عبده جاب اللـه يغني:

(*) صييت شعبي يغني في الموالد والأفراح من مواليد قرية شاوة القريبة من مدينة المنصورة، مات في سن السادسة والثلاثين، ليس له غير هذا الشريط.

الفلاح بقى عنده وابور

ومكنة ري وعربية

والجاموسة فاتت الألف

واللبنية بقت بمية

وكنت أســـأل أمـــي عن الكرة والكوتشـــي والفلنـــة اللي عليها رقم 7.

وكانت أمي تنظر إليّ، وتسألني: سلمت على أبوك؟

وكنت أسألها عن الكرة والكوتشي والفلنة اللي عليها رقم 7، وكانت أمي تصب الشاي في الكوباية وتنظر إليّ ولا تجيب، وكان الفنان عبده جاب اللـه يغني:

قالوا.. ارفع يدك يا سياف

هذا الشاعر ما ينضام في أرضنا ولا يهان

أمرك يا أمير أبو زيد(*)

كان أبي مائلًا بكتفه على الكنبة، وكانت ذراعه الشمال كلها مفرودة على الكنبة، وكانت الغابة في فمه، وكان يسحب أنفاسًا قصيرة من الجوزة في البداية ثم يسحب نفسًا طويلًا وعميقًا، ثم

(*) يقصد أبو زيد الهلالي.

يفتح فمه ويخرجه واحدة واحدة، ثم يشرب رشفة من كوباية الشاي، وكان الفنان عبده جاب الله يغني:

طل الحليوة من البستان ومْغير

لابس قميص أز فوق الفستان وقصير

حلو الملامح لكن الوجه متغير

حين دخلت الغرفة فتشت تحت السرير وفي الدولاب، ولم أعثر على حقائب للسفر كتلك التي كان يأتي بها أبي وهو عائد من الأردن، مددت على السرير يائسًا ونمت، ثم صحتني أمي مع قرآن العصر لأذهب إلى المكتب، وكانت تتحاشى النظر إليّ، ولم أعد أسألها عن الكرة والكوتشي ولا عن الفلنة التي لم يحضرها لي أبي.

21

حين استغنت الأردن عن خدمات أبي رجع إلى مصر ومعه الحاج أمين، ورمضان ابن خالته، والأستاذ محمد عثمان.

عمل أبي بالفلاحة بعد عودته من الأردن، لكنه كان يحلم بأن

أتعلم، ربما غيرة من أصحابه الذين تعلموا، وربما شفقة علينا من الفلاحة، وربما، وربما! لكنه كان مصرًا على أن أتعلم!

كان أبى يسرح إلى الغيط ومعه الحمارة التي اشتراها بعد عودته من الأردن، ويبذر ومعه الحمارة التي اشتراها بعد عودته من الأردن، ويروي ومعه الحمارة التي اشتراها بعد عودته من الأردن، ويرعى الأرض ومعه الحمارة التي اشتراها بعد عودته من الأردن، وكان يأخذنا معه في مواسم الحصاد والزراعة، كنت أناوله عُقد الأرز والغلة أو عقد الربة وهو يلقمهم إلى الدرَّاسة، أو أمسك الشيكارة على ماكينة الدراس.

يفرح أبي بعد مواسم الحصاد ويغني هذه الأغنية:

واللـه وفيت أبو عبد اللـه، واللـه كفيت

تسلم وتعيش يا ابو عبد اللـه، واللـه وكفيت

موقف والتاريخ يسجله لأولاد العم

واللـه وكفيت بو عبد اللـه، تعيش وتسلم

وقفت بغداد وعمان بخنجر واحد

والأردن قالت كلمتها شعب وقائد

تقول أمي إن أبي كان يريد أن يصبح صبيتًا مثل عبده جاب

اللـه و"أحمد مجاهد"(*)، كان صوته جميلًا، وخطه جميلًا ورسمه ساحرًا، وكنت أتمنى أن آخذ حلاوة صوته فقط، لكني لم أرث من أبي شيئًا، كان أبي شعره نازلًا على حواجبه، وكان طويلًا، ورشيق القد، وكان يحب الطهي، سنين غربته جعلته طاهيًا ممتازًا، أبي كان يطبخ أفضل من أمي، وكان هو الذي يطبخ لنا اللحم، وحين نتعشى باللحم ونحمد اللـه، كان أبي يقول منتشيًا بمذاق اللحم في فمه: كسم الفراخ.

تقول أختي الكبرى إن أبي ضربها كثيرًا وهي صغيرة، وأخي الأكبر كان يقول كلامًا مثل هذا، أما أنا فأعتقد أن أبي تغير بعد عودته من الأردن، فشل في السفر إلى السعودية، وفشل في أن يتنازل عن إصراره بأن نتعلم، فأصيب بالسكر. كان يثور لأتفه سبب، وكانت نوبات السكر تزوره لأتفه سبب، وكانت نوبات السكر لا تتوقف، وحين يفيق من النوبة يركب الحمارة التي اشتراها بعد عودته من الأردن ويسرح إلى الغيط، وأذهب أنا إلى المكتب.

(*) أشهر صبيت في الدلتا والوجه البحري، له العديد من القصص المشهورة أشهرها زهرة ومروان.

22

كان الابن الأكبر للشيخ طلعت الحصري اسمه حسن، وكان حافظا للقرآن، وكان يرتدي نظارة طبية على عينيه، وكان يدرس بالجامعة ويحفظنا القرآن بعد العودة من الجامعة، وكنا نناديه: يا أستاذ.

وكان لا يعاقب بالزُّخمة مثل الشيخ عوض، ولا يعاقب بالحصى مثل والده، بل كان يضرب بخرزانة محطوطة داخل خرطوم أحمر اسمها "الحاجة"، وكان يضرب أحيانًا بالكف وبالشلوت.

ومرة كنت أسمّع له سورة هود وقلت: "قال لعاصم".

فصفعني على وجهي وقال: "قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم".

ولم يضربني بعدها ولا مرة، ولم يضحك في وجهي ولا مرة، وكان يحب ابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة، كان يهزر معهم ويضحك معهم، وكنت أدخل معهم في مسابقات بربع القرآن، وبنصف القرآن، وبالقرآن كله، وفزت معهم وكُرمت معهم.

وجاءت مسابقة كبرى فاجتزت معهم الاختبار الأول بمسجد السلام

بالسنبلاوين، واجتزت الاختبار الثاني بمقر جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالمنصورة. وجاء يوم المسابقة النهائية، كان الحاج أمين ورمضان ابن خالة أبي والأستاذ محمد عثمان عندنا بالبيت، كانوا يشربون الجوزة قبل ذهابهم إلى أعمالهم، وقبيل أن يفترقوا رفع الحاج أمين كفيه وقال: الفاتحة له.

سافرت أنا وابن الأبلة خديجة إلى القاهرة وامتحنا الامتحان النهائي بمسجد الفتح، وكُرمت أنا وابن الأبلة خديجة في احتفال ليلة القدر، وبعدما عدنا من الحفل بأيام قال لي الأستاذ حسن طلعت الحصري: عاوز نصف المكافأة.

ورفض أبي إعطاءه نصف المكافأة، فقال الأستاذ حسن طلعت الحصري: عاوز ربع المكافأة.

وقال أبي لن أعطيه ربع المكافأة، وقالت الشيخة للناس في شارع المكتب: كلوا فلوسنا!

وكانت الناس تنادي عليَّ في الشارع ثم تقول: إدوا للست فلوسها!

ثم طُردت من مكتب أرملة الشيخ طلعت وعدت إلى مكتب الشيخ عوض، ثم أصر سيدي على عودتي إلى المكتب وأعطى أرملة الشيخ طلعت خمسة وأربعين جنيهًا من المكافأة.

حين وصلت المكتب بعد المصالحة، جلست مع ابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة على الأرض، وظهر الأستاذ حسن طلعت الحصري في بلكونة البيت، ثم نادى عليَّ وسألني: جبت بقيت الفلوس؟

وكان ينظر إليَّ بعين تطق شررًا، ثم ظهرت الشيخة في البلكونة وكانت ترتدي خمارها الكبير وتسند بيدها على البلكونة وتنظر إليَّ بعينين تطقان شررًا، وكانت تقول: إنت أخيب واحد فيهم، أنا رشحت اسمك في الاختبار الأول، ورشحت اسمك في الاختبار الثاني.

ثم نظر الاثنان إلى بعضهما للحظة، بعدها طردني الأستاذ حسن طلعت الحصري من المكتب.

23

في طابور الصباح، في مدرسة الكَفر الابتدائية المشتركة رقم 2، كان ابن الأبلة هانم يقدم إذاعة الصباح، وكان ابن الأبلة خديجة يتلو القرآن، وكان ابن ناظر المدرسة يقول حكمة اليوم، وكنت أقف في آخر الطابور والمخلة القماش معلقة في كتفي. عندما ينتهي

طابور الصباح، كان ابن عمتي يدق على الطبلة نغمات المارشال ونحن نصعد السلم.

في الصف الأول الابتدائي جلست في الدكة الثالثة في الصف الأول، وفي الصف الثاني جلست في الدكة الرابعة في الصف الأول، وفي الصفين الثالث والرابع جلست في الدكة قبل الأخيرة في الصف الأول، وفي الصف الخامس جلست في الدكة الأخيرة في الصف الأول.

كنت أحب حصة العربي، وكانت مدرسة العربي، الأستاذة ماجدة أبو النجا، تأمرني أن أجلس على الدكة الأولى في بداية الحصة، وكنت أعود لأجلس في الدكة الأخيرة في الصف الأول بعد انتهاء الحصة.

أمينة مكتبة مدرسة الكَفر الابتدائية المشتركة رقم 2، كان اسمها سامية، وكانت صديقة الأبلة هانم والأبلة خديجة، دخلت الأبلة سامية علينا فصل خامسة أول وهي تحمل كرتونة كُتب، وزعت الأبلة سامية على كل تلميذ كتابًا، وطلبت الأبلة سامية من كل تلميذ مُلخصًا للكتاب.

كان كتابي عن الصحابي "أبو ذر الغفاري"، وكان مؤلف الكتاب عبد الحميد جودة السحار، وكان مكتوبًا على جلد الكتاب "نهضة مصر"، لخصت كتاب "أبو ذر الغفاري" لعبد الحميد جودة السحار

في صفحة، وسلمت الملخص إلى أمينة المكتبة، ووضعته الأمينة وسط ملخصات تلاميذ فصل خامسة أول.

بعد أسبوع، جاءت الأمينة مرة أخرى إلى الفصل في حصة العربي، كان مع الأمينة الأبلة خديجة والأبلة هانم وناظر المدرسة، كانت الأمينة تحمل أربعة كتب وورقة، وضعت الأمينة الكتب على الدكة الأولى في الصف الثاني، ثم نادت الأمينة على أسماء الفائزين.

أخذ ابن ناظر المدرسة جائزته كتابًا، وأخذ ابن الأبلة هانم جائزته كتابًا، وأخذ ابن الأبلة خديجة جائزته كتابًا، وقالت الأمينة وهي تسلمني الكتاب: خُد لو إنك ما تستهلوش!

أخذت الكتاب ووضعته في المخلة القماش، لم أفتح الكتاب ونسيت عنوانه، وحين خرجت من المدرسة رأيت العيال يرمون بمراكبهم الورقية في الترعة فأخرجت الكتاب ورميته في الترعة مع المراكب الورقية.

دخلت البيت، ورميت المخلة على الكنبة التي في الصالة، ثم دخلت المطبخ، وجلست على الكرسي الخشبي القصير جدًا، كنت آكل أرزًا حبة وحبة، وبطاطس وبيضًا وفلفلًا مخللًا. كنت أمضغ الطعام في نهم. كنت أحب الأرز حبة وحبة والبطاطس والبيض والفلفل المخلل. سمعت في أذني صوت الأبلة ماجدة مُدرسة العربي،

وجدت الأبلة ماجدة مدرسة العربي واقفة على باب المطبخ، قمت من على الكرسي الخشبي القصير جدًا، وكان فمي مملوءًا بالأرز حبة وحبة والبطاطس والبيض والفلفل المخلل، وطت الأبلة ماجدة مُدرسة العربي وقبلتني، قالت الأبلة ماجدة: إنت زعلان؟

قالت الأبلة ماجدة: ما تزعلش.

قالت الأبلة ماجدة: إنت أشطر تلميذ في العربي.

أمي تقول إن الأبلة ماجدة سألت عني وأنا في الصف الأول الإعدادي بالمعهد الديني، أمي تقول إن الأبلة ماجدة سألت عني وأنا في الصف الثاني الإعدادي بالمعهد الديني، أمي تقول إن الأبلة ماجدة سألت عني وأنا في الصف الثالث الإعدادي بالمعهد الديني، أمي تقول إن الأبلة ماجدة سألت عني وأنا في الصف الأول الثانوي، وحزنت حين عرفت أني دخلت علمي علوم.

24

في الصف الأول الثانوي علمي الموجود في الدور الثاني، في الفصل الذي بجوار السلم، جلست جنب ولد اسمه محمود المكاوي، كان محمود المكاوي طويلًا ونحيلًا، وكان شعره أصفر وأكرت، وكان يقول: أنا شاعر.

كان محمود المكاوي يكتب الشعر على ورق كراريس، وكان يخرج الورق من جيب بنطلونه القماش ويقرأه لي. كان محمود المكاوي يقرأ الشعر عليَّ بين الحصص، وفي وسط الحصص وفي آخر الحصص. وكان هذا مطلع أول قصيدة قالها لي محمود المكاوي:

هاتوا المعالق للمشايخ يطفحوا

الفتة بردت والمشايخ روحوا

قوم يا شيخنا كُل الفتة

وكُل الفتة بلا كسل

وكُل الفجل and البصل

خرجت من باب المعهد الديني والقصيدة عالقة بأذني، مشيت من عند المعهد حتى وصلت مزلقان القطار وكانت القصيدة عالقة بأذني، رميت الحجارة في ترعة البوهية والقصيدة عالقة بأذني، وصلت موقف عربات الكَفر والقصيدة عالقة بأذني، ثم تحركت العربة واجتازت طريق المعاهدة، ورمت بلدًا، وراء بلد، وراء بلد، ووصلنا البلد والقصيدة عالقة بأذني، دخلت البيت ثم ذهبت إلى الدرس وعدت من الدرس ودخلت البيت، وأكلت وشربت وذاكرت، ووضعت رأسي على المخدة، والقصيدة عالقة بأذني.

نهضت من نومي، ومررت من فوق أخي النائم على السرير ونزلت على الأرض، ووقفت أمام الترابيزة، وفتحت الكشكول الذي كان معي في الدرس، ونزعت ورقة من النُّص، وأمسكت القلم وكتبت بيتًا، بيتين، ثلاثة أبيات، أتممت قصيدة وطبقتها ووضعتها في جيب البنطلون ثم نمت.

حيـــن ذهبت إلى المعهد، انتظرت حتـــى انتهت الحصة الأولى وأخرجت الورقة وقلت لمحمود المكاوي: أنا ألفت قصيدة.

ألقيت على محمود المكاوي بيتًا، بيتين، ودخل الأستاذ سليم مدرس الأحياء، كان للأستاذ سليم شعر أسود ناعم مقلوب للوراء، وكان للأستاذ سليم عين جاحظة، وكان الأستاذ سليم يشرح الدرس وهو متمسمر عند السبورة، كان يخفي الطباشيرة بين أصابع يده المرفوعة ويتكلم بصوت خافت وممدود في آخره، وكان رمش عينه الجاحظة العلوي يميل على رمش عينه الجاحظة السفلي، وفجأة، توقف الأستاذ سليم عن الشرح وأشار إليَّ بأصابع يده التي تخفي الطباشيرة، وقال: قوم يا وَحْش.

قال: أنا كنت باقول إيه؟

خبأت ورقة الشـــعر تحت الدكة ووقفـــت وقلت: كنت بتقول... كنت بتقول...

قال الأستاذ سليم: اترزي اقعد.

وقال الأستاذ سليم أيضا: نفسي أعرف أهاليكم بيعلموكوا ليه!

ثم أكمل الشرح.

25

بعد انتهاء الحصة الثانية أخرجت الورقة من جيب البنطلون، وألقيت على محمود المكاوي بيتين آخرين ودخل الأستاذ علاء المسري، كان للأستاذ علاء المسري رأس أصلع صغير جدًّا، وجسد طري وضخم جدًّا، وكان صوته رفيعًا و"حريمي" جدًّا.

طلب الأستاذ علاء من الدكة الأولى كلها القيام، ثم أمرهم بالجلوس في آخر الفصل، ثم نادى الأستاذ علاء على راني طه عبد اللطيف، حمل الأستاذ علاء الكرسي من تحت الشباك المطل على شارع المدارس، ووضعه أمام الدكة التي جلس فيها - وحده - راني طه عبد اللطيف. كان لراني عين يُسرى زرقاء لا يرى بها، وعين يُمنى سوداء يرى بها، وكان شعره أصفر ناعما.

كان راني يضع يده على جانب فمه ويوشوش الأستاذ علاء، ثم فتح الأستاذ علاء أول زرار من أزرار القميص، ورفع الأستاذ

علاء أكمام القميص، ثم وضع الأستاذ علاء كوعيه على الدكة، ثم وضع الأستاذ علاء رأسه الأصلع الصغير بين كفيه واقترب من راني طه عبد اللطيف.

ارتطم صوت الكرسي الذي كان يجلس عليه الأستاذ علاء بالأرض فجأة، وسكت صوت الفصل فجأة، والتفت راني طه عبد اللطيف وراءه فجأة، وهجم الأستاذ علاء عليّ، وكان يصرخ: يا ولاد الكلاب يا جزم!

كنت مرعوبًا من نظرته ومن جسده ومن صوته الحريمي، ثم ضرب الأستاذ علاء بعصاه ضربتين على دكتي، ثم قال: طلع كراسة الرسم.

ثم ضرب الأستاذ علاء بالعصا على الدكة، ثم قال: طلع علبة الألوان.

قال الأستاذ علاء: اقف.

ثم انحنى الأستاذ علاء وكلبش في معصم يدي اليمنى ورفعها، وقال: افتح إيديك.

كلبش الأستاذ علاء بيده اليسرى في معصم يدي اليمنى، وضرب بالعصا التي في يده اليمنى يدي اليمنى، كلبش الأستاذ علاء بيده اليسرى في معصم يدي اليسرى، ثم ضرب بالعصا التي في يده

اليمنى يدي اليسرى، ضرب الأستاذ علاء بالعصا يدي اليمنى ويدي اليسرى، وظل الأستاذ علاء يضرب يدي اليمنى ويدي اليسرى، كان الأستاذ علاء ينهج، وكان ينطق مع كل ضربه: هه.. هه.. هه.

وكان راني طه عبد اللطيف يجلس على الدكة الأولى وحده.

26

في الفُسحة وضعت يديَّ تحت الحنفية، وكان الالتهاب والسخونة اللذان في كفيَّ لا يهدآن. في الفسحة وضعت يديَّ الملتهبتين على النجيلة. في الفسحة رفعت يديَّ الملتهبتين من على النجيلة، وكان الالتهاب والسخونة اللذان في كفيَّ لا يهدآن. في الفُسحة تشاجرت أنا ومحمود المكاوي، قال محمود المكاوي أني سرقت الشعر، وقلت: ألفته.

قال محمود المكاوي: شعري أجمل من شعرك.

وتعاركنا.

بعدما انتهت الفُسحة وانتهى العراك، دخلنا الفصل، وقبل أن يدخل مدرس الحصة الرابعة، أدخل محمود المكاوي يده في جيبه وأخرج ورقة، وفتحها وقال: اسمع القصيدة الجديدة.

قال محمود المكاوي:

يا مدرسين

قولوا لـ"سرور"(*) بطَّل تعليم

وبيع بطيخ على السكين

ثم دخل الأستاذ شحات مُدرس الأدب، كان للأستاذ شحات قصة يعرفها طلاب معهد السنبلاوين الديني الأزهري للبنين، وطالبات معهد السنبلاوين الديني الأزهري للفتيات، كانت القصة قد حدثت منذ شهرين، القصة كان طرفها الأول فتاة من معهد الفتيات وطرفها الثاني ناصر العزاوي الطالب بمعهد البنين والأستاذ شحات مدرس الأدب. كان الأستاذ شحات يتحرك بخطوة سريعة وقصيرة وهو يشرح، وكنت أشعر أنه يقفز مثل فرخ الماء، كان للأستاذ شحات عادة أزلية، كان يضع بين كل كلمة وكلمة لفظة "إيه".

كان وجهه للشباك ويطل على شارع المدارس، وكان محمود المكاوي يلقي عليَّ مزيدًا من أبيات الشعر، وفجأة فُتح باب الفصل ودخل ناصر العزاوي وضرب الأستاذ شحات مُدرس الأدب في مؤخرته بالشلوت، وخرج يجري من الفصل، وجرى الأستاذ شحات وراءه من الفصل، وجرينا خارجين وراءهما ونحن نقول بصوت واحد: سيبوه.. سيبوه.

(*) وزير التعليم حينها.

في طرقة الدور الثاني بالمعهد الديني ونحن نحاول الفصل بين الأستاذ شحات مُدرس الأدب وبين ناصر العزاوي، وجدت نفسي وجهًا لوجه مع راني طه عبد اللطيف. قال لي راني: معلهش.

قال لي إن الأستاذ علاء تعصَّب وهرب حين أخبره أن البنت التي يكتب له راني الجوابات الغرامية باسمها تريد مقابلته.

قال راني طه عبد اللطيف إنه سيحبك قصة أخرى للأستاذ علاء قبل حصة الرسم القادمة.

قال لي راني إن الأستاذ علاء مرعوب من رأسه الصغير جدًّا وجسده الضخم جدًّا وصوته الرفيع جدًّا.

27

حين اهتزت الأرض داخل المسجد البحري كانت ناس ساجدة وناس راكعة، وناس على الميضة تتوضأ، وناس في الكبانيهات تستنجى، وكان عامل المسجد الذي له حسنة سوداء كبيرة عند أنفه يؤذن لصلاة العصر. رمى عامل المسجد الميكروفون من يده ووضع ديل الجلابية في سنانه، ثم نط من شباك المسجد، وهو يصيح: حوشيني يا امه!

تداول أهل الكفر حكاية عامل المسجد وهم يضحكون، وفرحت

فيه، لكني فرحت أكثر حين أخذت إجازة من الدراسة بسبب الزلزال، قالت لي ستي: روح مع العيال اجمع قطن.

ثم قالت بعد أن ضمت شفتيها ومصمصتهما: هات مصاريفك.

كنا نصحو وراء الفجر، ونتجمع عند دار صاحب الأرض التي سنجمعها، ثم نمشي وراء عربة وحمار صاحب الأرض أو نسبقهما.

كان للعيال أسماء "أبو ضب" و"الجعيدي" و"محمود قفة" و"محمود فشر" و"الجلياط" و"ولاد نجية" و"مرة تف مرة نف"، وكنت أعرف "مرة تف مرة نف"، كان يعيش في الشارع المجاور لشارعنا.

حين وصلنا إلى الأرض، رفع الرجال جلابيبهم وعملوا عِبًّا، وخلعت البنات والنساء ملابسهن الجديدة في الحمال ثم ارتدين ملابس العمل وربطن المخل على الوسط، وقال صاحب الأرض للجلياط: النظافة من الإيمان.

وتأخر "مرة تف مرة نف"، وتمخط ثم تف، وتمخط ثم نف، كان يفعل ذلك كل خمس دقائق، وكان صاحب الأرض يزغر له ولا يتكلم.

وكان أبو ضب والجعيدي لا يتوقفان عن الملاسنة، قال أبو ضب وهو يمسك شعر الجعيدي: المواعين وسخة!

ثم ضحك، وقال الجعيدي لأبو ضب: اقفل ضبك.

وقال "مرة تف مرة نف" لمحمود قفة وهو يشير إلى أذنه: عاوزين القفتين ننشر غلة في الشمس!

وضحكت النساء والبنات على كلام "مرة تف مرة نف" ضحكات مجلجلة، ووطى "مرة تف مرة نف" على أذني وهمس لي وهو يغمز بعينيه: شُفت الحسنة؟

كان يشير ناحية بنت كان زرار جلابيتها العلوي مفتوحًا، وكان الجزء العلوي من صدرها ظاهرًا، وكانت هناك - عند المفرق - حسنة، واقترب "مرة تف مرة نف" من أذني وقال: شَايف الحسنة؟

كانت البنت تنظر إلينا وتضحك، ثم تُسر لجارتها بشيء، ثم تنظر إلينا وتضحك، وكان "مرة تف مرة نف" لا يكف عن سؤالي: شُفت الحسنة؟

بعد أن انتهينا من أول وش، استدرنا عائدين في الأرض، وكانت الأكياس العملاقة في الحمال تعلو والإرهاق يزداد، وبدأ الكل يفكر في الطعام، وقال رجل: الضهر اتأخر كده ليه؟

ورد آخر: كنت ادي لأبو علامة ربع جنيه وهو يدن بدري.

وقال صاحب الأرض: الغدا كبدة سودا!

بعد الظهر كانت الشمس حارقة جدًّا، وكان ظهري يؤلمني جدًّا،

وكان الجلياط الأول على الأنفار في جمع القطن و"الأشبر"، وكان صاحب الأرض يصرخ فيه: النظافة من الإيمان.

وكان "مرة تف مرة نف" يسألني عن الحسنة، وكانت صاحبة الحسنة تضحك ناحيتنا وتغمز لجارتها بشيء، وكنا كلنا جوعى وننظر إلى السكة.

ظهرت امرأتان من بعيد تحملان صينيتين فوق رأسيهما، وقال صاحب الأرض: الكبدة وصلت.

لكن المرأتين رمتا السلام وابتعدتا بالصينيتين، ومرت صوانٍ وصوانٍ ونحن جوعى ونفكر في الأكل، حتى جاءت زوجة صاحب الأرض ومعها ابنتها، وشتم صاحب الأرض زوجته، وقال لنا: اطلعوا كلوا.

تنحى "مرة تف مرة نف" جانبًا، ثم تمخط وتف، ثم تمخط ونف، وقال رجل: يا واد قلبت بطننا هو مسلسل؟!

وقال رجل: هيطفحنا الكبدة!

حين رُفعت الأغطية القماش عن الصواني لم يكن ثمة كبدة، كانت قطع باذنجان سوداء مقلية في الزيت، وأرز وفاصوليا بيضاء وفجل وجرجير وكرات وليمون معصفر وجبن قديم غارق في المش.

تشاجر الجعيدى وأبو ضب ونحن عائدون إلى الكَفر، وحاول

عيل من "ولاد نجية" أن يفك الاشتباك، لكن الجعيدي ضربه، وهجم "ولاد نجية" الثلاثة على الجعيدي. كان رأس الجعيدي كبيرًا، وكانت عيناه جاحظتين ومخيفتين، وكان قادرًا وحده على ضرب أي عيل من "ولاد نجية"، لكنهم حين اجتمعوا عليه ضربوه، كان كل واحد منهم يخانقه من مكان، ابن نجية الكبير كان مسئولًا عن رأسه، وابن نجية الصغير كان مسؤولًا عن ما تحت رأسه حتى وسطه، وابن نجية التخين كان مسؤولًا عن المتبقي من جسد الجعيدي.

تقابلنا بعد صلاة العشاء واتفقنا على سرحة الغد، ثم تقابلنا بعد صلاة العشاء واتفقنا على سرحة الغد، ثم تقابلنا بعد صلاة العشاء واتفقنا على سرحة الغد.

جمعت ستين جنيهًا في الإجازة التي أخذتها بسبب الزلزال، واشتريت فلنة تشيكوسلوفاكيا التي لعبت بها كأس العالم سنة 1990، قبل أن يقولوا لنا عودوا إلى الدراسة فقد سكن الزلزال.

28

قمت وراء الفجر، وارتديت فلنة تشيكوسلوفاكيا، وخرجت إلى الشارع، كانت أعمدة الإنارة لا تزال مضاءة، وكانت الشوارع ساكتة، وكنت أسمع أصوات إذاعة القرآن الكريم والديكة والحمير

والناس داخل البيوت، وكنت أجرب النداء الذي سأصرخ به في شوارع المنصورة.

وصلت بيت محمود المكاوي في القرية الملاصقة للكفر، وخبطت على الشباك المطل على الشارع كما اتفقنا، خرج محمود المكاوي شبه نائم، كان يرتدي شرز بيج وحذاء كبيرًا في قدمه، وكان جذعه مائلًا للأمام قليلًا، قال المكاوي: تعال نجيب ابن خالتي.

مضيت وراء المكاوي بين البيوت والأراضي الزراعية، حتى وصلنا إلى بيت له ساحة كبيرة، كانت الساحة مملوءة بغسالات قديمة وخراطيم بلاستيكية، ونط محمود المكاوي من فوق السور القصير ونادى على ابن خالته. وخرج من وراء الباب عيل، كانت يده غليظة وجبهته عريضة وشعره وراءها أكرت وقصيرًا. سرنا نحن الثلاثة بين الأراضي الزراعية حتى وصلنا الطريق الأسفلتي، وتعلقنا على إكصدام عربة نقل محملة بالبهائم، كنت أغيّر يدي المُمسكة بالباب الخشبي العالي جراء البرد، وكنت أغيّر قدمي التي على الإكصدام، حتى وصلنا "برج النور"، ومن "برج النور" ركبنا عربة حتى "سندوب"، ومن "سندوب" ركبنا ميكروباص ونزلنا عند موقف الأتوبيس القديم. وسرنا في شارع موقف الأتوبيس القديم حتى وصلنا إلى نهايته. كانت سلالم محطة قطار المنصورة الخلفية في مواجهتي، وكانت عربات ميكروباص متراصة على اليمين داخل

شارع الأتوبيس القديم، وكان كشك عم نبيل على اليسار في مواجهة السلم الخلفي لمحطة قطارات المنصورة، ما إن لمح عم نبيل محمود المكاوي قادمًا حتى وقف، حمل المكاوي حمولة كبيرة من الأهرام والأخبار والجمهورية وأخبار النجوم والكواكب وأخبار الرياضة والشباب. وحمل ابن خالته حمولة أقل، وأعطاني عم نبيل عشرين جريدة أهرام، وعشرين جريدة أخبار، وخمس عشرة جريدة من جورنال الجمهورية.

غادرنا الكشك ورجعنا في شارع موقف الأتوبيس القديم، كان محمود المكاوي في المقدمة يحمل حمولته الضخمة، وكان ابن خالته عن يمينه وكنت عن يساره، وفجأة نطق ابن خالة محمود المكاوي على علو صوته: أخبار، أهرام، جمهورية.

ثم نظر إليّ وابتسم وبانت أسنانه البيضاء الكبيرة والمنظمة، ثم نطق بعلو صوته مرة أخرى: أخبار، أهرام، جمهورية.

تفرقنا كلٌّ في شارع، وكنت أحمل الجرائد وأسير في الشوارع وأنا متردد في المناداة، وصرخت وأنا أشعر بالحمل الثقيل الذي في يدي: أخبار، أهرام، جمهورية.

كنت ألتفت حولي وأراقب تعبيرات الناس وانطباعاتهم، وكنت أشعر بالحمل الثقيل الذي في يدي، ونطقت بصوت أعلى: أخبار، أهرام، جمهورية.

بعت الجورنال الأول بثلاثين قرشًا، ثم نطقت: أخبار، أهرام، جمهورية.

ولمحت تجمعًا للناس على باب مصلحة حكومية فاقتربت وحاولت المناداة على بضاعتي لكنني لم أستطع، وتقهقرت عائدًا، وسرت في منتصف الشارع وناديت: أخبار، أهرام، جمهورية.

نادت عليَّ امرأة من شباك إحدى العمائر وقالت لي: اطلع.

صعدت سلالم العمارة الواسعة والساكتة، وكانت المرأة تقف على باب الشقة التي بجوار السلم في الدور الرابع، كانت ترتدي بيجامة قطنية مبللة بالماء على فخذها وصدرها، وكانت تلف رأسها بإيشارب كبير غير مربوط، وقالت لي بعد أن أخذت الأخبار والأهرام والجمهورية: تعال كل يوم.

حين نزلت إلى الشارع نظرت إلى الشباك الذي كانت تقف فيه المرأة وكان الشباك مغلقًا، وعدت أمشي في الشارع وأنادي: أخبار، أهرام، جمهورية.

أشار لي رجل من البلكونة كي أصعد، كان الرجل ستينيًا وكان شعره بنيًا وذقنه حليقًا، وكان وجهه أحمر دم، وكانت ابنته تطارده بحديثها، كان شعرها أسود فاحمًا، ولها أنف أبيها المستقيم والطويل والجميل، وكانت تقول له: دمه تقيل.

وكان يقول لها وهو يتصفح الصفحة الأولى بجريدة الأخبار: لما أرجع نكمل.

أعطاني الرجل نصف جنيه وهو مشغول بتأجيل الكلام مع ابنته، وحين وضعت قدمي على أول درجة من درجات السلم سمعته يقول: شكرًا يا كابتن.

التفت ووجدته يبتسم، وكانت هي مستغرقة في شرح وجهة نظرها، وكان يقول لي: قل لها تأجل الموضوع.

قبل أن أهبط السلم.

عدت للشارع مرة أخرى، وبعت جرائد للمارة في الشوارع، والراكبين في العربات، وللناس في محلاتهم التجارية، وحين جاءت الساعة العاشرة تبقت معي ثلاثة أعداد جمهورية، وجريدة أخبار وجريدة أهرام، عدت بهم إلى كشك عم نبيل المواجه للسلم الخلفي لمحطة قطارات المنصورة.

كان عم نبيل قصيرًا وله كرش معتبر، وكان يرتدي طاقية قماش بيضاء، وفي عينيه الاثنتين حوَل، وكان حوَل العين اليسرى أبشع من حول العين اليمنى، وكان في صوت عم نبيل بحة لا تفارقه بحيث تمنعه دومًا من الكلام بصوت منخفض، كان يكلمك فتشعر أن حنجرته واحشاء أخرى غير حنجرته تتكلم، كان عم نبيل يشبه

في صوته وحوّل عينيه الفنان "علي الشريف"(*).

في اليوم الثالث من عملي ببيع الجرائد، نادى عليَّ رجل عجوز، كان جالسًا على مصطبة أسمنتية، وكان يرتدي جلابية سمني ويسند على العكاز، ثم قال: اقعد.

قال إنه لن يشتري، قال إنه زهق من الأخبار والأهرام والجمهورية ومن الجرائد كلها، قال إنه حضر حفلة كارم محمود التي أقامها في المنصورة في الستينيات وسهر للصبح، قال إنه غنى ليلتها:

أمانة عليك يا ليل طول

وهات العمر من الأول

عدت إلى كشك عم نبيل بخمس عشرة جريدة، وكان مستاءً وينفخ وهو يعطيني حصتي من المسا والأهرام المسائي.

نزلت السلم الخلفي لمحطة قطارات المنصورة، وخرجت من بوابة المحطة الكبيرة، ودرت في الميدان الواسع الذي أمام المحطة، وسرت في شارع السكة الجديدة، ورجعت وأنا أنادي على بضاعتي، في الميدان قابلت ابن خالة محمود المكاوي، كان قد باع حصتهَ كاملة ويده فارغة من الجرائد، وكنت أحمل حصتي كاملة، اشترى ابن خالة محمود المكاوي حصتي واندفع داخلًا ميدان المحطة، ثم دخل

(*) ممثل مصري له أدوار ثانوية في السينما المصرية.

شارع السكة الجديدة، واتجهت أنا إلى سينما عدن. أعطيت الرجل خمسة وسبعين قرشًا ودخلت من بابها الخلفي المطل على الشارع الجانبي، جلست في الصف الأول وكانت رائحة الأمونيا والبراز تفوح من الحمّامات القريبة، وكانت الشاشة فوق رأسي مباشرة، وكانت رقبتي تؤلمني وأنا أتابع الفيلم، كان الفيلم تركيًا والبطل اسمه "إبراهيم طاطلسيس"، وكان اسم الفيلم "أزرق أزرق"، وكانت كل النساء في الفيلم لهن عيون زرقاء، وكنت لا أنزل عينيّ من على الشاشة، وكانت رقبتي تؤلمني. بكيت عندما مات إبراهيم طاطلسيس في آخر الفيلم، ثم غادرت ترسو سينما عدن وعدت إلى كشك عم نبيل، كان يجلس وحده على صندوق كوكاكولا أحمر، وكان طبق أرز أبيض وسمكة مقلية وسلطة خضار محطوط أمامه على صندوق كوكاكولا أحمر، كان عم نبيل يسألني والبحة لا تفارق صوته، وعيناه الحولتان تنظران إلى مكان مجهول: بعت كام نسخة؟

أعطيته حقه بالمليم وقال لي: اقعد.

سألته عن محمود المكاوي وابن خالته ولم يرد، كان قد غرف من حلة محطوطة بجوار صندوق الكوكاكولا الأحمر وملأ طبقًا بالأرز ووضع فوق الأرز سمكة وملعقة ثم قال لي: كُل.

وكنت آكل الأرز والسمك المقلي ولا أتكلم، وكان عم نبيل في مواجهتي يأكل الأرز والسمك المقلي وسلطة الخضار ولا يتكلم، ثم

وضعت الملعقة في الطبق وقلت: الحمد لله.

وسألته عن محمود المكاوي وابن خالته وقال لي: روحوا.

وحين هممت بمغادرة الكشك نادى عم نبيل عليَّ، وقال: روح وما عدتش تيجي!

29

حين وصلنا القرية المقصودة، سألنا عن الدليل، كنت أنا وأبو ضب والشريك المسلم والشريك المسيحي وابنتا الشريك المسيحي. كان اسم الدليل إبراهيم، وكان طويلًا وشعره أسود كحل، وسوالفه طويلة ويشبه "أميتاب باتشان"، وكان يملك دكان بقالة في بيته وتقلى زوجته طعمية وتبيعها أمام البيت، وكان صوت الموقد يدوي، وكانت رائحة الطعمية تجنن.

مد الشريك المسلم يده في طبق الطعمية الساخنة وأكل واحدة، ثم مد يده في الطبق وناول واحدة للشريك المسيحي، ثم مد يده بعد ذلك وأعطاني وأعطى أبو ضب وابنتي الشريك المسيحي. كانت البنتان توأم، وكان لكل واحدة شكل مختلف في الجسم والوجه، وأمسكت البنت النحيلة قرص الطعمية وأكلت في نهم، وتأوهت السمينة حين

وضع الشريك المسلم القرص في يدها ثم وقع منها على الأرض.

ومد لها الشريك المسلم يده بقرص آخر، وكان أميتاب باتشان ينظر إلينا وهو غاضب، ثم ركب معنا العربة وسرنا في شوارع القرية، وكانت البنت السمينة تنفخ في صوابع اليد التي كانت تمسك بها الطعمية.

دخلنا البيت، المقصود، كان الوسيط والشريكان في المقدمة، وكنت أحمل الأجولة وكان أبو ضب يحمل الأجولة والأربطة، وابنتا الشريك المسيحي وراءنا. صعدنا السلم الخشبي إلى السطوح، كان السطح مفروشًا بعقد القش والحطب الشامي والحطب وكنت أرى بلاص المش، ولمحت أحذية قديمة بجواره ورأيت كوتشي بينها.

كنت أمسك الجوال من طرف، وكانت البنت السمينة تمسك من الطرف الآخر، وكان الشريك المسيحي يضع أشراش الثوم داخل الجوال ويضغط على الشرش ثم يشد الجوال من الخارج ويضغط بيده التي داخل الجوال على شرش الثوم، وكانت عيناي طول الوقت على الكوتشي الذي بجوار البلاص، كان الكوتشي قديمًا ومتهالكًا، أما رباطه فقد كان برتقاليًا وجديدًا.

صعدت صاحبة البيت وهي تحمل صينية الشاي، وهمس الشريك المسلم: هيَّ البلد دي بتشرب الشاي قبل الأكل؟!

وضحك الشريك المسيحي، وسألت صاحبة البيت الشريكين وهي مستغربة: بتعصروا التوم؟!

قال الشريك المسلم: بنأكله للمواشي.

وقال الشريك المسيحي: هوَّ فيه زيت؟

ورددت صاحبة البيت جملة الشريك المسلم وهي تنزل من على السلم، وكنت متعلقًا برباط الكوتشي الملاصق لبلاص المش.

جاء وقت الغداء، ومر وقت الغداء، ولم يصعد أحد من أهل البيت ولا سأل الوسيط، واضطر الشريك المسلم للنزول والبحث عن أكل، واستغللت لحظة الإنهاك التي طالت الكل وخلعت الرباط من الكوتشي ووضعته في جيبي.

حين عاد الشريك المسلم كان يحمل سمك سلمون وجبنًا وبيضًا، وقال إنه أعطى البيض للست لتسلقه وطلب منها خبزًا.

كان الشريك المسلم يقول ونحن نأكل: لو شوية طبيخ!

كان الشريك المسلم يغني:

الليلة ليلة رضا

وفيها الحلل طالعة

لولا الطماطم ياعين

ما كانوش عملوا للخضار دمعة

حملنا أجولة الثوم فوق العربة وربطناها، وركبت أنا وأبو ضب وابنتا الشريك المسيحي فوقها، وكنت أرى وأنا جالس فوق أجولة الثوم أميتاب باتشان وهو يصر على أخذ ثلاثة جنيهات فوق حقه، ويقول إنها ثمن الطعمية التي أكلناها في الصباح.

دندنت البنت السمينة بأغنية ثم سكتت، ودندن أبو ضب بأغنية ثم سكت، ودندنت البنت النحيلة بأغنية ثم سكتت، وأكملت أنا الدندنة.

كنت أحفظ الأغاني وأحافظ على الإيقاع. من صغري وأنا أتمنى أن أكون مطربًا، كنت أتمنى لو آخذ من أبي صوته، وكانت البنت السمينة تقول لي: كمِّل.

وكانت البنت النحيلة وأبو ضب ساكتين وينظران إلى بعضهما.

بعدما نزلنا أجولة الثوم في المخزن، وضعت يدي في جيبي وأخرجت رباط الكوتشي، ثم أعدته إلى جيبي.

في الليل كنا نستحم أنا وأبو ضب في دش الجامع البحري، ثم نرتدي الملابس الجديدة بعد الاستحمام ونمر من أمام بيت الشريك المسيحي، وكان الشريك يحيينا بأعلى صوته: اتفضلوا يا معلمين.

قبل أن تنتهي إجازة الصيف، زوَّج الشريك المسيحي ابنتيه، وضعفت صداقتي بأبو ضب، أما الرباط فقد خبأته في انتظار كوتشي جديد يليق به.

30

كنت في الدراسة حين قابلني محمود قُفة ومحمود فشر وقالا لي: في شغلانة.

كانت الشغلانة آتية عن طريق ولد اسمه "عبده"، كان تاجران من الصعيد قد استأجرا أرض السيد رضوان المزروعة بالبرسيم التي في حبس الأصولي منذ شهور، وتركا بيوت النحل فيها، ويريدان الآن أن يحملا نحلهما ويعودا إلى بلدهما.

قابلنا عبده في آخر الكفر، كان أبيض وله عينان خضراوان، وأول ما سرنا على سكة حبس الأصولي سألنا: مين اخترع الطنبوشة؟

وقلت: لا أعرف.

وضحك محمود فشر ومحمود قفة وقال عبده: العالم طنبش!

حين وصلنا أرض السيد رضوان رأيت النوارات البيضاء في أعلى أعواد البرسيم، وكانت الخلايا كلها متجمعة في آخر الأرض، وكانت أسراب النحل في طريقها للمبيت داخل دورها، وكان طنين النحل يملأ الآذان.

كان الرجلان الصعيديان مختلفين، الرجل أبو جلابية بني وشنب وكرش مستديرة كان يريد الانتظار قبل إغلاق أبواب الخلايا، والرجل

أبو جلابية رصاصي النحيل كان يريد إغلاق الأبواب الآن.

جئنا بالطين من جسر المصرف القريب، وكنت ألبس العفريتة وأرى العالم من خلال منخل، كانت الأرض خضراء بلا نهاية، وكانت بيوت الكَفر تظهر من بعيد، وكان الرجلان الصعيديان يمسكان بجواليص الطين ويسدان بها فتحات الدور الخشبية المرصوصة في الأرض، وكان النحل ينبعث من تحت جواليص الطين ويعلن تمرده على الطين والدور وعلى مالكيه وعلينا وعلى العالم. كان طنين النحل الهائج يدوي في أذني، وكان النحل الهائج يقف على المنخل الذي أرى من خلاله العالم، وكان النحل الهائج قد اخترق العفريتة التي ألبسها.

صرخت حين لدغتني النحلة أسفل عيني، ورميت خلية النحل من على كتفي، وجريت وكان سرب النحل يجري ورائي، ورمى محمود فشر الخلية وجرى على السكة وتمرمغ في الأرض كحمار، وكان محمود قفة وعبده يجريان وكانت أسراب النحل تجري وراءهما، وكان سائق العربة والسيد رضوان يفران من الأرض ويشيران لنا بالعودة، وكان الرجلان الصعيديان يستجديان لنكمل تحميل دور النحل على العربة.

حين انتهينا من تحميل الخلايا خلعنا العفاريت، وفررنا، وكانت أسراب النحل تجري وراءنا، وكنت أسمع طنينها المجنون في

أذنيَّ، وكان محمود فشر يقول لمحمود قفة ونحن نجري على سكة حبس الأصولي: إنت السبب!

وكان محمود قفة يقول لمحمود فشر: إنت السبب!

وكان عبده يضحك ويقول لهما: العالم طنبش هو السبب!

حين ذهبت لأشتري الكوتشي الذي سألعب به في الملعب الميري، قال البقال إن الكوتشيات الجديدة ستصل بعد يومين، ووجدت جزمة قديمة تحت الكنبة التي في الصالة ففستها، ونزعت رباطها القديم، ووضعت فيها الرباط الذي كنت قد سرقته من بلد أميتاب باتشان.

31

"علـــي هبوط" يحييكم من الملعب الميـــري بالكَفر، ويقول لكم: مساء الخير.

في أول لقاءات الدورة الرمضانية التي يقيمها مركز شباب الكَفر المطور، يسعدني أن أكون معكم، حيث الوصف التفصيلي والتعليق على أولـــى مباريات المجموعة الرابعة، بيـــن فريق "بافانا بافانا" وفريـــق "العيال"، بيمثّل فريق "العيال": لحراســـة المرمى محمود

شـــوقي الشـــهير بـ"جعيدي"، خط الضهر من تلاتة، التلاتة "ولاد نجية"، محمود منصور الشهير بـ"فشر" على الجناح اليمين، وعلى الجناح الشمال محمود رضوان الشهير بـ"قفة"، هاف دفندر.. هاف دفندر، اللعيب الظلبطة، اسمه إيه؟ يا لعيب! يا لعيب! اسمك إيه؟

جرى محمود وردة على الدكة التي في منتصف الملعب، واقترب من الكابتن علي هبوط، ووطى الكابتن علي هبوط على أذنه، وكان شهيق وزفير الكابتن علي هبوط يُدوي عالياً، وعاد محمود وردة وهو يضحك ويخنس في الأرض.

وكان الكابتن علي هبوط يقول ويُسمع صوته من الميكروفون المحطوط في بلكونة الدور الرابع بالبيت المطل على الملعب الميري.

كهاف دفندر "دكتـــور كمالو"(*)، اتنين لعيبـــة قوة ضاربة في الهجوم، محمود شـــمندي الشـــهير بـ"مرة تف مرة نف"، ومحمود وردة.

بذل الكابتن حلمي الحســـانين الشهير بـ"حلمي الحلاق" مجهودًا كبيرًا في تخطيـــط الملعب بالجير، وحط الماء قبل ما يحط الكابتن حلمي الحـــلاق الجير عيل من عيال الكَفر، وفرد الخيط المحطوط عليه الماء والجير عيال من عيال الكَفر، وعلق الشـــبك في المرمى

(*) لاعب كرة، لعب في منتخب جنوب إفريقيا أواخر التسعينيات.

عيال من عيال الكَفر، فكل الشـــكر للكابتـــن حلمي الحلاق ولعيال الكَفر.

قاعد جنبي في المقصورة، أبويا الحاج حسن هلال عمدة الكَفر، وقاعد جنب العمدة على اليمين أبويا الحاج السيد فراج شيخ الكَفر، وقاعد جنب العمدة من الناحية الثانية أبويا الحاج صبري سليم شيخ غفر الكَفر، ومعنا في المقصورة الرئيسية الأستاذ حسين حسن هلال رئيس مركز شباب الكَفر المطور، وبجواره السادة أعضاء مركز الشباب يتصدرهم الكابتن حلمي الحلاق بمجهوده العظيم، ومعنا في المقصورة الرئيســـية الحاج حسين السماحي الشهير بـ"أبو الأميرة هند" كبير مشـــجعي كرة القدم بالكَفر، ومعنا الحاج إبراهيم وردة، وابنه إسماعيل العائد من الجمهورية العربية العراقية، ومعنا السيد الفاضل محروس أباظة ناظر مدرســـة الكَفر الابتدائية المشـــتركة رقم 2، ومربي الأجيال، ويســـرنا تشـــريف الأستاذة خديجة حسن معروف الشهيرة بـ"الأبلة خديجة"، أستاذتي الفاضلة، وفي صحبتها أمي ومعلمتي هانم علي زكي الشهيرة بـ"الأبلة هانم"، ومعنا الأبلة ماجدة أبو النجا مدرسة العربي وأستاذة الأجيال، ومعنا الحاج سيد رضوان وابنه عبده، ومعنا الحاج حكيم عبد الرازق وبرفقته حماره الشـــهير، ومعنا الحاج صبري أبو علامة مقيم الشـــعائر بالمسجد البحري، ومعنا الأســـتاذ محمد عثمان، ورمضان الســـيد محفوظ، والحاج أمين الخولي، العائدون من الأردن.

حـــوش يا جدع إنت وهوَّ حمار حكيـم هيبوظ الخطوط، وامش بـــره يا كلبـــة محفوظة هتبوظي دائرة التمنتاشـــر، يـــا محفوظة! يا محفوظة!

اعملي نفســـك طرشـــة! انزلي من على السطح وتعالي حوشي كلبتك، واطلع يا جدع إنت وهوَّ من الملعب المباراة ستبدأ، ونظبط ساعتنا مع بعض.

في لمسة وفاء وعرفان، تقرر أن يقف الفريقان دقيقة، حدادًا على روح فوزي اللاجئ الشهيد المختفي هو ومعزته المخلصة، وعلى روح الأبلة سامية الوكيل أمينة المكتبة بمدرسة الكفر الابتدائية المشتركة رقم 2. صفَّر الحكم والمباراة بدأت.

عجبني بشـــكل شخصي رباط جزمة هاف دفندر فريق "العيال" دكتـــور كمالو، وعجبنـــي قوة التحامات محمـــود وردة ابن الحاج إســـماعيل وردة العائد من العراق، ابن أبونا الحاج إبراهيم وردة، غُرة الفلاحين، والمباراة حماسية بين الفريقين وشكل الماتش حلو، عجبني فريق العيال ومبسوط بالانسجام التام بين خطوطه الثلاثة، لكن نصف الفريق شكله عائد من خناقة، يا ترى الكدمات التي تحت عيونهم، وفي جباههم، قرصات أم لكمات أم شـــلاليط أخذوها في وجوههم، وأعود وأكرر وأؤكد، أنا بشـــكل شخصي عجبني رباط جزمة دكتور كمالو، باحس إن الرباط له دور في كل قطعة يقطعها،

وكل تمريرة يمررها، وكل قذيفة يطلقها، ويعجبني إصرار محمود وردة ابن الحاج إسماعيل وردة العائد من العراق، ابن أبويا الحاج إبراهيم وردة، غُرة الفلاحين.

والمباراة حماسية بين الفريقين وشكل الماتش حلو، حوش يا جدع حمار حكيم نزل الملعب، إنت فين يا حكيم؟ يا محفوظة، يا بت يا محفوظة، الميكروفون يسمع مالطة يا محفوظة يا بت حوشي كلبك الجعان، والله كلنا جعانين، كل سنة وأنتم طيبين، ما كلنا صايمين، ويا سلام لو طورة محشي، بمناسبة الجوع، المحشي كان الإجابة المفضلة عند كل نجوم القرى والعزب والكفور المجاورة عن سؤال: ما هي الوجبة المفضلة؟ تحديدًا محشي الكرنب والدوالي في رأس القائمة، ودكتور كمالو نطَّق الكرة على الصدر وأرسل قذيفة، داخل الشبكة، الجون الأول لفريق العيال.

ويصفر الحكم بنهاية الشوط الأول من أولى مباريات الدورة الرمضانية التي يقيمها مركز شباب الكفر المطور، أولى مباريات المجموعة الرابعة بين فريق "بافانا بافانا" وفريق "العيال" والنتيجة واحد: لا شيء، أحرز الهدف دكتور كمالو من تسديدة صاروخية.

كنت أقف في منتصف الملعب، في منتصف الدائرة التي في منتصف الملعب، حين تقدم الرجل مني وكان ابنه وراءه، كانا متماثلين، في الوجه والجسد، وكان للرجل علامة صلاة كبيرة

فـــي جبهته، وكان لابنـــه علامة صلاة في جبهتـــه، وكانا يتقدمان مني ويبرقان على الرباط، وحين أصبح الرباط تحت أعينهما، قال الرجل وعينه مبرقة على الرباط: اخلع الجزمة!

ثم صفعني بالقلم، وسكتُّ ولم أنطق، وقال: برباطها!

وقلت: الرباط بتاعي!

وقال الرجل: اسكت يا حرامي!

وســكتُّ ولم أنطق. منعتنـــي تبريقته من أن أحكـــي له حكاية الجزمة.

كان ابنه يحمل الجزمة ويغادر الملعب وراءه، وكان الكابتن علي هبوط يستريح من التعليق، وكانت مكبرات الصوت تستريح، وكان ناظر المدرسة والأبلة خديجة والأبلة هانم يتابعون ما يجري ومبسوطين مما يحدث.

32

كنت أجمع طماطم عندما علمت بظهور نتيجة الثانوية الأزهرية. جاء صديقي إلى الغيط ومعه راديو، وقال صاحب الأرض لي: روح.

وقلت: سأنتظر حتى المغرب.

وقال صاحب الأرض لي: روح.

فرفعت ظهري عن الخط، وغادرت السريحة وهم يدعون لي.

كانت أقفاص الطماطم مفروشة على طول الحمال وتلمع تحت الشمس، وكانت هناك جماعة في العشة يرصون الطماطم ويوششون الأقفاص، ويدعون لي، وحين عبرت القناة الصغيرة في آخر الأرض وخطوت على السكة كنت لا أزال أسمع السريحة يدعون لي.

كان مذيع إذاعة القرآن الكريم في منطقة القاهرة الأزهرية، معهد المعادي الثانوي للغات، وكان صديقي مترقبًا ومتلهفًا، وكنت مترقبًا ومتلهفًا، كان صديقي يريد أن يدخل كلية الصيدلة وكنت لا أعرف إن كنت أريد أن أدخل كلية الصيدلة أم لا، كنت مترقبًا ومتلهفًا وأريد أن أنجح بغض النظر عن كلية الصيدلة.

وصلنا الكَفر، وكان مذيع إذاعة القرآن الكريم قد وصل إلى منطقة القليوبية الأزهرية، معهد الخانكة الثانوي الأزهري فتيات، قال صديقي: لنذهب إلى البيت.

وقلت: لن نذهب إلى البيت.

سرنا في شوارع الكَفر، وكان صديقي مترقبًا ومتلهفًا ويريد أن يدخل كلية الصيدلة، وكنت مترقبًا ومتلهفًا وأريد أن أنجح بغض

النظر عن كلية الصيدلة. بدأ المذيع في منطقة الشرقية الأزهرية، ثم أنهى منطقة الشرقية الأزهرية، وبدأ بمعاهد منطقة الغربية الأزهرية، وأنهى منطقة الغربية الأزهرية، ودخل منطقة الدقهلية الأزهرية، معهد المنصورة الثانوي الأزهري بنين.

وصلنا أنا وصديقي ذروة الترقب واللهفة، كانت الترعة تفصل بيننا وبين بيوت الكَفر، وكان صوت الراديو على آخره، وكانت بلكونات البيوت ومداخلها وأعمدة الكهرباء منيرة، وكان الظلام يمسك بالأراضي الزراعية، وحين نطق المذيع: معهد السنبلاوين الديني الأزهري بنين.

تسمرنا كصنمين.

شعرت ببرودة في أطرافي وسخونة في وجهي، وقال صديقي: يا رب.

وقال مذيع إذاعة القرآن الكريم: أرقام جلوس رقم خمسة وعشرين ألف مائة وواحد، ومائة واثنين، ومائة وثلاثة، ومائة وأربعة، ومائة وخمسة، ثم سكت، ثم قال: أرقام جلوس رقم خمسة وعشرين ألف مائة وتسعة، وكنت أنا رقم جلوس خمسة وعشرين ألف مائة وتسعة.

كانت يدي ويد صديقي متشابكتين، وكانت يد صديقي تضغط على يدي بقوة، وكان المذيع قد أنهى أرقام الجلوس العشرينية ودخل في الثلاثينية، وحين سمع صديقي رقم جلوسه رمى الراديو من يده

وترك يدي وقفز في الهواء وهو يصرخ، وزاد اتساع عينيه ودهشته وقفز في الهواء وهو يصرخ، وغار صوت صديقي وكأنه يموت، وقفز في الهواء وهو يصرخ، لم يدخل صديقي كلية الصيدلة، أنا الذي دخلتها.

33

الحمارة التي اشتراها أبى بعد عودته من الأردن كانت بنية، الحمارة كانت قصيرة، ونحيلة وبطيئة وعجوزا، الحمارة كانت تسكن الزريبة التي في آخر مدخل البيت، في الزريبة كان الفرن على اليمين وكان الكانون تحت الفرن وكانت الحمارة تُربَط وتقف وتنام وتأكل خلف الفرن، وكانت مخلفات أسمنتية وحديدية مركونة وراء الحمارة.

الحمارة كانت تتصدر أمام شوية ماء مسكوبين على الأرض، الحمارة كانت لا تتحرك، الحمارة كانت تقف وتنظر إلى شوية المية وتلتفت عن يمينهم وعن يسارهم، الحمارة كانت تنظر وراء شوية المية ولا تتحرك، وكان أبي يسبها دائمًا: يا شب يا بنت الشب.

كنا نستعين بحمير أقاربنا وجيراننا في مواسم الحصاد والزراعة،

فالحمارة كانت تئن وتتعب مع أقل حمولة، وبطنها كانت منفوخة دائمًا.

عشرناها من حصان "محمود أبو يوسف سليم" من قرية "شنفاس"، أقامت في زريبته أسبوعًا كاملًا وأعطاه أبي عشرين جنيهًا، ثم ولدت الحمارة كائنًا برتقاليًا لا يشبهها، الكائن البرتقالي كان خفيفًا في الحركة وقويًا ونشيطًا، الكائن البرتقالي ترك أمه في الزريبة ومشى في المدخل، الكائن البرتقالي فتح البوابة الحديدية المواربة برأسه وخرج إلى الشارع، وجريت أنا وأخي وعيال الشارع كله وراءه ونحن نصيح: حوش المهر.

لم يتوقف الكائن البرتقالي حتى أنهى شارع الكَفر الكبير كله، قبل أن نمسك به، انتبه وقفز وجرى حتى أنهى شارع الكَفر الكبير كله. دخل الكائن البرتقالي شارعنا ودخلنا وراءه أنا وأخي والعيال، أبطأ الكائن البرتقالي من سرعته عند بوابة بيتنا الحديدية، وكنت أسمع صوت أمه وهي تنهق داخل الزريبة، وكان هو ينظر إلى الشارع، ثم ينظر داخل البيت إلى الحمارة، التفت الكائن البرتقالي ثم فتح البوابة برأسه ودخل، وسمعت ولد يقول: مهر حلو قوي.

ورد ولد آخر: مش مهر دا بغل!

توقف البغل على باب الزريبة، وكانت العيال واقفة على مصطبة جارنا وتنظر إليه، وكان البغل ينظر إلى الحمارة داخل الزريبة،

ثم ينظر إلى البوابة الحديدية، كان البغل يقف على باب الزريبة ويعترض على الدخول.

عند السروح، أخرج أبي الحمارة من الزريبة، ووضع البردعة على ظهرها وربطها وهي واقفة في المدخل، ثم سحبها متجهًا إلى البوابة.

مر أبي من البوابة أولًا، ثم مرت الحمارة وراءه، ومررت وراءهما، ثم أمرني أبي أن أغلق البوابة ورائي، وكان البغل يقف خلف البوابة ويتطلع إلى الشارع، وكان البغل يعود ويتهادى حزينًا في المدخل.

باع أبي البغل بعد شهور من ولادته، وعاد وعشر الحمارة من حصان محمود أبو يوسف سليم من قرية شنفاس، أقامت في زريبته أسبوعًا كاملًا، وأعطاه أبي أكثر من عشرين جنيهًا. رأيت للحمارة خمسة بطون برتقالية، وكلهم بيعوا في سوق الخميس.

وفي مرة سهتنا الحمارة وحملت، وجاء وليدها بنيًّا، ونحيلًا، وكان ذكرًا، وكان في نظرات عين الحمارة إلى الجحش البني معنى لم يكن موجودًا من قبل في بطونها الخمسة البرتقالية.

كلما سرحت مع أبي إلى الغيط، كان الجحش يأتي معنا. كان الجحش يجري على السكة ويسبقنا، كان يأكل من الحشائش الخضراء،

ويجري، وكان يشرب من المسقى، ويجري، ويسبقنا. وعندما يسمع الجحش صوت أمه يقف، ويلتفت للوراء، ثم يجبره نهيق أمه ونظرات عينيها المستجدية على العودة، باختصار يريد الجحش أن يختبر الشارع، والغيط، والحياة وحده، وتريد الحمارة أن يبقى بجوارها.

في مرة ذهبت أمي لزيارة أبي الذي كان محجوزًا في المستشفى بسبب نوبة السكر، وحين عادت وجدت البوابة الحديدية مفتوحة والحمارة مربوطة في الزريبة، ولا أثر للجحش.

تركت أمي شنطة الأكل في المدخل، وأغلقت البوابة بالترباس، وخرجت تبحث عن الجحش، تقول أمي إنه فعلها الأسبوع الفائت ووجدته عند الغنامة الذين في طرف الكَفر، تقول أمي إنها ذهبت إلى الغنامة الذين في طرف الكَفر ولم تجده، تقسم أمي يمين ثلاثة أن الغنامة الذين في طرف الكَفر سرقوه.

دارت أمي على الجرن الميري، وجرن "جبر"، وجرن "العمدة"، مشت على حمال الجندي، وسكة الأصولي، وعلى سكة المسقى الشرقية، ولم تجد للجحش أي أثر.

سافرت أمي إلى القرى والعزب، سألت ولاد الحلال عن الجحش، أعطت المؤذنين ملامح الجحش وأوصافه وهي تؤكد على الحلوان، وتوالت النداءات على الجحش البني الصغير من ميكروفونات المساجد

بعد صلاة الظهر، وبعد صلاة العصر، وقبل صلاة المغرب، ولم نجد للجحش أي أثر.

حين خرج أبي من المستشفى ودخل البيت واستراح في السرير، قالت له أمي: الجحش ضاع!

وقال أبي: فداك.

الحمارة صارت حزينة، الحمارة صارت تعيسة، أضع مقطف التبن أمامها فلا تقربه، وأفرد غُمر البرسيم في الطوالة أمامها فلا تقربه، وأملأ لها حلة الماء من الطرمبة وأقول لها: ترش ترش.

فتشيح برأسها عنها.

في يوم، كانت أمي تبكي بحرقة وهي تصف حال الحمارة لأبي بعد ضياع ضناها، وجاء ابن عم أبي للسلام عليه، قال له أبي: خدها بعها في سوق الخميس.

34

لا أعرف الفرق بين الحب والجنس، للكلمتين معنى واحد، لكن المعنى مقسوم نصفين، كلاهما ليس شيئًا دون الآخر، ماذا يكون الجنس من دون حب؟ وماذا يكون الحب من دون جنس؟ لكن متى

اختلطا في ذهني وصار لهما هذا التجانس العظيم؟

أول تجربة لي كانت مع هند بنت الحاج حسين السماحي، تجربة أرغمت الذاكرة - مرارًا - على تذكرها دون جدوى.

أخذتني هند من يدي وقالت لي: تعال نطلع على السطح.

قالت لي: تعال ننام على المرتبة.

قالت لي: انغطى.

أحيانًا أسأل نفسي: هل حدثت التجربة فعلًا؟

في مكتب الشيخ طلعت، رأيته للمرة الأولى، كانت بنت تجلس وفستانها القصير فوق ركبتها، كانت مربعة أمامنا، ثم رَفعت ركبتها، وكان كلوتها أبيض ومائلًا على أحد الجانبين، ورأيت الشق أنا وابن عمتي، قلت لابن عمتي: لم تره.

قال: رأيته.

قلت: لم تره.

قال: بالأمارة أحمر مجحمر وفي وسطه نسيرة.

كنت من أول الصف الأول الابتدائي حتى الصف الخامس الابتدائي أنا والبنات في نفس الفصل، كان صف الصبيان جنب الباب وصف البنات جنب الشباك، والصف الذي في النص، الذي أوله ابن الأبلة

خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة، نصفه صبيان ونصفه بنات.

كل واحد في الفصل كان يحب واحدة، وكنت أحب اثنتين، هالة وشيماء، كان لهالة وجه بريء وشفاه رفيعة، وكان لشيماء وجه امرأة وشفاه حيوانية، كان لشيماء بطن ولم يكن لهالة بطن، كان لشيماء مؤخرة، وليس لهالة شيء، كانت شيماء مثيرة وليس لهالة من الإثارة شيء. هل أحبتني أي منهما؟ لا أعرف. لقد كنت صموتًا في الحب وصموتًا في الجنس.

حين انتقلت للتعليم الأزهري، قال ابن عمتي إن البنات عملن حلاوة ونتفن شعورهن في حصة المجال الصناعي، قال إن شيماء مشعرة وكنت أعرف، قال إن ساقها ملحمة وبيضاء وكنت أعرف، قال إنها كانت تتأوه بمياصة والبنات ينزعن شعرها.

في المعهد الديني، تعلمت نواقض الوضوء، والطهارة، والجنابة. في المعهد الديني، الطلبة ذكور والمدرسون ذكور والإداريون ذكور. في المعهد الديني، الأنثى الوحيدة كانت ممرضة المعهد، كان اسمها هناء، كانت شقراء ومربعة ولها عينان خضراوان، كان محمد حامد يجلس بجواري في الدكة، كان أسود ونحيلًا ومريضًا بالقلب، كل يومين أو ثلاثة تأتي هناء وتنادي عليه، يخرج محمد حامد بصحبتها إلى العيادة ويكشف على قلبه.

حين يعود محمد حامد كان يحكي لي عن هناء بعدما تخلع البالطو، يحكي لي عن سمانتها، عن نهدها، وعن مؤخرتها.

في مرة، بعدما عاد من العيادة وحكى لي عن هناء، تراهنا، وخلعت بنطلوني وخلع بنطلونه، وكنا غارقين في المقارنة حين نادى أستاذ الصرف علينا. نهضنا واقفين، كان بطني موضوعًا على الدكة، وكان الحزام والبنطلون سائبين، وكنت أمسكهما بيديَّ، وكان بطني محطوطًا على الدكة، واستطعت ربط الحزام وشد السوستة قبل أن يفتح الأستاذ باب الفصل ويطردنا خارجه.

وقفت أنا ومحمد حامد وراء كانتين المعهد لدقائق، ثم تركت محمد حامد ودخلت الحمَّام، سمعت صوت الهمهمات وتتبعتها، ثم دخلت الحمَّام قبل الأخير، وقفت على الماسورة ورأيتهما.

كان وجهي في وجه الشيخ حسن الكفيف تمامًا، وكان الشيخ محمود يحرك رأسه على اليمين وعلى اليسار ويطلب من الشيخ حسن أن يمسكه، وكان الشيخ حسن يحرك رأسه يمينًا ويسارًا ومترددًا في أن يمسكه، التفت الشيخ محمود برأسه ناحيتي فجأة، واصطدمت عيناه الخضراوان الباهتتان بعينيَّ، حين رفع يده ليؤكد صحة نظر عينيه الكليلتين كنت قد خرجت من الحمَّام.

لكن أقوى مثال على تداخل معنى الحب والجنس في ذهني كانت حسناء وكانت ابنة خال شيماء، كانت في مدرسة ابتدائية أخرى،

كان دماغها تخينًا وبتجيب ملاحق، وكانت جميلة، وسمراء، كانت تحبني، وتحب ابن عمتي، وتحب صديق ابن عمتي، وتحب صديقي قريب ثناء الشيمي، في وقت واحد، كنا نجلس نحن الأربعة على المصطبة في مواجهة باب بيتها.

ما إن تفتح الباب وتمشي حتى نمشي نحن الأربعة وراءها، تشتري شيئًا من دكان البقالة وتعود فنعود وراءها، تترك الباب مفتوحًا فنقف نحن الأربعة وعيوننا متعلقة بالباب المفتوح، تطل علينا حسناء من الباب المفتوح، ترمي لنا ابتسامة وتكمل الحديث مع أحد، ترمي حسناء ضحكة وتكمل الحديث مع أحد، تطل علينا متبغددة بصدرها، وتسند على الباب بيدها، تلتفت على أول الشارع، ثم تلتفت على آخر الشارع، وهي تقول لأمها: ما فيش حد.

ثم تدخل وتجلس وتطل علينا من الباب المفتوح.

جاءت حسناء بثلاث من صديقاتها إلى الدار، الأولى كانت سمينة ومؤخرتها كبيرة وصدرها كبيرًا، والثانية كانت نحيلة وصدرها كبيرًا، والثالثة كان وجهها أحمر دم وصدرها كبيرًا.

كانت حسناء تجلس على المصطبة بينهن، كانت ترتدي العباءة الزرقاء ذات الورود البيضاء على طول الذراع، وكلما نادت أمها عليها ترد: حاضر، نعم.

ولا تقوم من مكانها.

قال ابن عمتي: اخترت حسناء.

وقال صديق ابن عمتي: اخترت حسناء.

وقال صديقي قريب ثناء الشيمي: اخترت حسناء.

وقلت: اخترت حسناء.

كنا نتبعهن وهن ذاهبات إلى درس الإنجليزي في آخر الكفر، وكنا نتبعهن وهن عائدات من درس الإنجليزي من آخر الكفر، وكنا نتبعهن وهن ذاهبات إلى درس الرياضيات في أول الكفر، وكنا نتبعهن وهن عائدات من درس الرياضيات من أول الكفر، وكان كلامنا كله على صاحبة العباءة الزرقاء ذات الورود البيضاء المنتشرة على طول الذراع.

قامت خناقة لرب السما بيننا حين قال صديقي قريب ثناء الشيمي إنه قبّلها، قلت: كداب!

وقال ابن عمتي: كداب!

وقال صديق ابن عمتي: كداب!

وتفرقنا كلٌّ في سكة.

عرفنا بعد ذلك أن أخ الست صاحبة المصطبة التي أمام بيت

حسناء قبّلها، ومدرس الإنجليزي قبّلها، وزميلها في درس الرياضيات قبّلها، وصاحب دكان البقالة قبّلها... ثم خرجت حسناء من المدرسة، وتزوجت واستقرت في عزبة بعيدة.

اشتهيت بعد حسناء كل النساء، ولم يكن من سبيل للوصول إلى أي منهن، لم أحب أيًا منهن، لكني أحببت ثناء الشيمي، كانت معي في مكتب الشيخ طلعت الحصري، كانت هي البنت التي كانت مربعة ورفعت ركبتها فجأة! كانت تصغرني بعام، ولم أكن أحبها في ذلك الحين، بدأت أحبها وهي في الصف الأول الثانوي.

كانت تمر كل يوم بعد العصر من أمام جرن العمدة لتأخذ درس الإنجليزي، أرنبة أنفها كانت نازلة لتحت قليلًا، وكانت شفتاها أسفل أرنبة الأنف كحبة فراولة مشقوقة نصفين، وحين يبتعد النصفان، يكشفان عن كريستالات بيضاء مُنيرة، وكانت عيناها سوداوين، ورمشها أسود والحاجب فوقهما أسود. وكنت كلما رأيتها أشوط الكرة بعيدًا بعيدًا وتقع الكرة في الترعة ثم يخرج العيال من الملعب ليخرجوا الكرة من الترعة، وكنت خلال كل ذلك أنظر إليها. وكانت عيناها ترمي بسهام، ورمشها يرمي بسهام، وحبة الفراولة ترمي بسهام، وسهم صدرها الجميل كان يرشق في القلب، ويظل القلب ينزف أشعارًا وأحاسيس كنت أحكيها للعيال داخل الملعب، وللعيال على المصطبة، وعلى سلم الجامع، وفي الدرس، وفي الفصل، وفي المعهد.

وكان كل عيل من العيال يأخذ جزءًا من أشعاري ويكتبه إلى حبيبته في جواب ويعطيه لها، بعضهم أعطاه لها في كتاب الدرس، وبعضهم أعطاه لصديقة حبيبته لتوصله، وبعضهم سلمه لها يدًا بيد. أما ابن عمي فقد دخل على حبيبته بيتها، ودخل وراءها المطبخ وأعطاها الجواب وقرأته وقبّلها وحضنها، ثم دخلت أم حبيبته عليهما وصوتت، ثم أخرجت رأسها من شباك البيت وصوتت، ثم خرجت إلى باب البيت وصوتت، وحين جاء الناس على الصويت قالت: حرامي بيسرق أنبوبة الغاز!

وأما ابن عمتي فقد دخل أبوه غرفته وفتش جيوبه ووجد جوابًا قديمًا كانت كتبته له حبيبته وجوابًا جديدًا فيه جزء من أشعاري، وأخذ أبوه الجوابين وسلمهما في يد أبو حبيبته، وانهال إخوة حبيبته عليها باللكم والشلاليط حتى فقدت الوعي وحملتها الإسعاف إلى المستشفى.

وأما أنا فكنت قد أخذت ورقة على جانبيها وأعلاها وأسفلها ورود حمراء وزرقاء من أحد العيال، وكتبت وسط الورود أني أذهب إلى المعهد والسهام راشقة فيّ، وأعود من المعهد والسهام راشقة فيّ، وألعب وأذاكر وأصحو وأنام والسهام راشقة فيّ، ولم أكتب شيئًا عن سهم صدرها طبعًا.

ووضعت الجواب في جيبي ومشيت وراء ثناء في طريق درس العربي، وطريق درس العلوم، وطريق درس الرياضيات، وطريق درس الكمبيوتر بالسنبلاوين، وطريق عودتها من السنبلاوين حتى البيت.

وكان بيتها كبيرًا، خمسة أدوار، ومدخله من الرخام، وعلى جانبي بابه كانت محلات أبيها التجارية مفتوحة، وكانت حركة البيع داخل المحلات تجري على قدم وساق، وكنت أقف غير بعيد من البيت والجواب في جيبي حين خرج أبوها من محل الأعلاف، وكان طويلًا وضخمًا، وعيناه ورمشاه وحاجباه نفس عينَي ورمشَي وحاجبَي ثناء، وكانت جلابيته مكوية وطاقيته مكوية وفي قدمه اليسرى زكة واضحة، وكان الناس يسلمون عليه في خضوع.

وكنت أمر على بيتها بالليل وبالنهار، وأجلس غير قريب من بيتها بالليل وبالنهار والجواب محطوط في جيبي.

ومرة أخذ ابن عمي الجواب وأعطاه إلى حبيبته، وبعد أيام عاد إليَّ الجواب وقد كتبت ثناء على ظهره: NO RESPONSE.

كان ذلك قبل سفري إلى القاهرة بأيام.

35

كنت قد اشتريت بنطلونين جينز، وثلاثة قمصان، وجاكت، وتيشيرتين، وشرابين، وفوطة، وشبشب جلد أسود، من سوق الخميس.

وضعت الملابس والفوطة مع أكياس العدس والفاصوليا واللوبيا، أما الحلل والأطباق والملاعق فقد وضعتها في كيسين بلاستيكيين، ووضعت الشبشب الجلد في كيس منهما تحت الأطباق والملاعق.

حين هممت بحمل حقيبة الملابس على كتفي دخلت خالتي الصغرى، كانت قد تزوجت وسافرت السعودية إلى زوجها، ثم عادت من السعودية لإجراء عملية دقيقة بالمرارة. كان وجهها شاحبًا، وكان لها بقعتان داكنتان أسفل كل عين، كانت قد اختبرت الأمومة وجربت الغربة والمرض، ولأول مرة أرى منها ضحكة شبيهة بضحكة أمي. قالت لي: رحلة سعيدة.

وقالت بعد أن قبّلتني: ربنا يوفقك.

غادرت البوابة الحديدية تاركًا أمي وإخوتي وخالتي واقفين عندها، ثم أشرت لهم مودعًا ومضيت. كانت شنطة الملابس السوداء معلقة في كتفي، والكيسان البلاستيكيان في يديَّ، وكان صوت ارتطام الملاعق والأطباق، وصوت ارتطام الأطباق بالأطباق والحلل، يُسمع مع كل خطوة.

كنت لا أعرف إلى أين أخطو، ولا لماذا كل هذا العناء، لكن تصميمي كان يزداد مع كل مرة أسمع فيها صوت ارتطام الملاعق والأطباق والحلل.

غادرت شارعنا ورميت القهوة ورائي، ومشيت في الشارع الكبير، على اليسار كان أطفال يلعبون الكرة في جرن العمدة، وفي مواجهتي كانت عربات كارو وحمير داخلة جوه البلد، وكنت أنا وشنطة الملابس والملاعق والأطباق والحلل والكيسان البلاستيكيان، في طريقنا إلى موقف العربات لمغادرتها.

كان الماء يملأ الترعة عن آخرها، وكان قصر محفوظ الذي بناه لدلال الحبشية يقف شامخًا بتصدعات طولية وبنوافذ على هيئة أعضاء الإنسان.

عبرت الكوبري، وركبت العربة، وكان السائق ينادي: السنبلاوين، السنبلاوين.

جاء ابن الأبلة هانم والأبلة هانم، وجاء ابن ناظر المدرسة وناظر المدرسة، وجاء ابن الأبلة خديجة والأبلة خديجة، وكنت وحدي أنا والحقيبة السوداء والشنطتان البلاستيكيان.

كان السائق يدخل رأسه من وقت إلى آخر داخل العربة ويعد الركاب الذين على الكنبة اليمين، ثم يلتفت إلى الجهة الأخرى ويعد

الركاب الذين على الكنبة اليسار، وكان مطرب يغني من كاسيت العربة:

القمر مسافر

والسهر مسافر

والفرحة مسافرة

حتى الحزن سافر

كل الناس مسافرة(*)

كان الفلاحون ينزلون أجولة القمح والذرة من على العربات الكارو ويضعونها في مدخل ماكينة الطحين، وكان صوت الماكينة يدوي: بووم، بووم، بووم. ويغطي على كل شيء.

تحركت العربة بعد أن مُلئت الكراسي، قطعت العربة مدخل الكَفر، ثم عرجت يسارًا، وبان الكَفر كله وأنا أغادره، كنت أرى المقابر والبيوت والأراضي الزراعية، وأرى السماء فوق كل شيء.

على كوبري عزبة العفريتة كان الشيخ واقفا، التقت عيناي بعينيه وابتسم، وأشرت له محييًا، وأشار لابن الأبلة هانم وابن الأبلة خديجة وابن ناظر المدرسة، وبانت عزبة العفريتة والكَفر وأنا أغادرهما.

(*) أغنية حزينة تعبر عن الغرفة غناها مطربون كثيرون أشهرهم بليغ حمدى وأحمد عدوية ورمضان البرنس.

كنت أرى المقابر، والبيوت، والأراضي الزراعية، وأرى السماء فوق كل شيء.

كان الركاب يسمعون صوت ارتطام الأطباق والملاعق والحلل وينظرون إليّ، وكنت أحاول جاهدًا أن لا يسمع أحدٌ صوت الارتطام، لكن المطبات والأسفلت المكسر كانت تُضَيِّع محاولاتي سُدًى.

رمت العربة وراءها بيوتًا وبيوتًا، واختفت عزب وكفور وبلاد، ووصلت السنبلاوين أخيرًا.

في الماضي، كنت أعرج إلى المعهد الديني، أما الآن فإلى الأمام، إلى محطة القطار، ليأخذني بعيدًا، بعيدًا...

من ذا الذي بيده أن يقرأ الغيب؟ لا أحد يعرف ماذا سيحصل في الغيب!

قطعت التذكرة من شباك المحطة واتجهت إلى الرصيف، نزلت السلم واجتزت شريط القطار، ثم صعدت السلم إلى الرصيف الآخر، كان الركاب ينتظرون القطار، كان ركاب يقفون على الرصيف، وركاب يجلسون على مقاعد المحطة، وركاب يجلسون على سلم جامع المحطة. ورأيت محمد حامد، وراني طه عبد اللطيف، زميليّ في شقة الحي العاشر التي تنتظرني، وآخرين، فجريت عليهم، وتركت الكيسين البلاستيكيين ليسقُطا من يدي، وملأ صوت ارتطام الملاعق والأطباق والحلل محطة قطار السنبلاوين كلها.

36

عربة القطار كانت مملوءة عن آخرها، وكان آخرها يشبه أولها، وكان الضجيج يملأها عن آخرها، ورأيت رجلًا يسعل، كان يرتدي شالًا أبيض ملفوفًا حول رأسه، وتلفيعة بنية حول رقبته، وكان جسمه يرتج مع كل سعلة، وكانت امرأة سمراء ترتدي طرحة سوداء وجلابية سوداء تأخذه في حضنها، وكانت كفها تطبطب على كتفه، ونظر الرجل إليها وسعل، ثم نظر إليها وبكى، ثم نظر الرجل إليها ونهنه، وكان جسمه يرتج مع كل سعلة. وكانت امرأة تجلس بجوارهما على الكرسي، وكانت تحمل طفلة في حجرها، وكانت تنظر إليهما ثم تخنس في الأرض، ثم تنظر إليهما وتخنس في الأرض، وكان رجل يجلس على الكرسي المقابل لهما بجوار الشباك ينظر إليها، وكان نصف شاربه الأسود يهتز، وكانت عينه اليسرى تغمز لها، وكان رجل أسمر ينظر عليهما، وفجأة توقف الشارب الأسود، وثبتت عينه اليسرى، وهجم الرجل الأسمر على الرجل ذي الشارب الأسود، وصرخت المرأة التي ترتدي الطرحة السوداء وعلا صوتها على صوتيهما، ورفعت المرأة التي كانت جالسة على طرف الكرسي ابنتها وقامت من على الكرسي، وكانت تضرب الرجل ذا الشارب الأسود، وكان المنادي ينادي: عسلية، لب، ترمس... ترمس.

وكان رجل له ساق سمراء نحيلة ويرتدي جلابية بيضاء نائمًا على الشبكة، وفجأة اعتدل على الشبكة، وكان بالظبط شكل الشيخ سفاية، وكان يرتدي جلابيته وطاقيته، وكانت عيناه تبرقان وفمه مشدودًا طبعًا!

كان ينظر إليّ، ثم نظر إلى الرجل المنادي الذي لم يتوقف عن النداء عن العسلية واللب والترمس، ثم مد يده وأخذ الترمس، ثم أكل الترمس وظل ينظر إليّ، وكانت المشاجرة قد انتهت، وكانوا قد أخذوا الرجل الأسمر بعيدًا، واختفت المرأة التي كانت تحمل البنت، وكان الرجل ذو الشارب الأسود يجلس على الكرسي بجوار الشباك، وفوقه كانت مجموعة من الشباب تجلس على الشبكة، وكانت تصفق، وكانت تغني وتقول:

يا اللي شعرك كُتكت

كُتكت

لا بينام ولا يسكت

يُسكت

إلا بالخرزانة

فاكر نفسك قيمة

قيمة

وانت جزمة قديمة

قديمة

يا اللي شعرك كُتكت

وكان شاب ذقنه أصفر وشاربه أصفر، وشعره تحت الطاقية البيضاء أصفر، يجلس أمامهما على الشبكة، وكان يقرأ المصحف الشريف، وكان يجلس بجواره ثلاثة عساكر، أوسطهم يرتدي شارة حمراء على عضده، وكانوا يضحكون، وكان رجل عجوز بجوارهم، وكان الرجل الذي بجواره ينظر على العسلية واللب والترمس، ثم مد له المنادي يده بالترمس، ثم ناوله الرجل عملة معدنية، ثم رمى المنادي العملة المعدنية في وجه الرجل، فنط الرجل من فوق الشبكة، فوق بائع العسلية واللب والترمس، وملأ الصوت والضجيج العربة عن آخرها، وتدافع الناس كلهم باتجاه الشباك الذي كان يجلس بجواره الرجل ذو الشارب الأسود، ثم تدافعوا باتجاه الشباك المقابل له، ووصلت حركة التدافع القطعة الحديدية التي كنت أقف عليها مع محمد حامد وراني طه عبد اللطيف وابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة.

وكانت القطعة الحديدية تربط بين عربتي القطار، وكانت ترتج، وتعطيني انطباعًا أنني أتقدم وأتقهقر، وحين نظرت خارج القطار، كان القطار يمضي للأمام ويرمي وراءه بيوتًا وعزبا وكفورا وبلادا

ومدنًا وناسًا، وكان ناس يركبون على الحمير، وناس يعملون في الأرض، وناس يجلسون على القهاوي، وناس يضحكون، وناس يبكون، وناس حزينة وساهمة، وفجأة رأيت ولدين يرميان العربة بالطوب، وهشمت طوبة زجاج الشباك الذي كان الرجل ذو الشارب الأسود يجلس بجواره، وانتفض الرجل صارخًا، وكان الدم يسيل من تحت يده الموضوعة على عينه اليسرى ويغرق وجهه وشاربه، وكان الرجل الأسمر ينظر إليه ولا يتكلم، وكانت النسوان تصوت، وكان الرجال يحاولون إنزال شبابيك القطار الخشبية، ويحاولون إنزال نوافذ القطار الزجاجية، وكانوا ينادون على السائق وعلى الكمسري وعلى اللـه، وكان المنادي ينادي على الفلايات، وعلى المرايات، وعلى قصافات الأظافر، وعلى السلاسل، وعلى الميداليات، وكان القطار مستمرًّا في الاندفاع للأمام، ويرمي وراءه بيوتًا، وعزبًا، وكفورًا، وبلادًا، ومدنًا، وناسًا.

لم يتوقف القطار حتى دخل محطة الليمون، وحين نزلت منه كنت أسمع أصوات الصافرات، وكلكسات العربات تدوي خارج المحطة، وكنت أسمع صوتًا خافتًا جدًّا لارتطام الملاعق والأطباق والحلل في الكيسين البلاستيكيين المعلقين في يدي.

37

ركبت أتوبيسًا أبيض وأحمر من عند مسجد الفتح، وكان السائق يجلس في جانب وفي الجانب الآخر كانت لوحة زرقاء مكتوبًا عليها 710، وكان مكتوبًا فوق الرقم "الشيخ رمضان"، وتحت الرقم كان مكتوبًا "الحي السابع".

داخل الأتوبيس، كنت أنا، ومحمد حامد، وراني طه عبد اللطيف، وابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة نطل على الباب الخلفي للأتوبيس، وبجوار الباب الثاني للأتوبيس كان كمسري أسمر ونحيل يجلس على الكرسي، وكان رجل يجلس بجواره، وكان كوبا شاي محطوطين أمامهما، وأعطيت للكمسري ثمن ستة أنفار فقطع أربع تذاكر ووضعها في يدي ثم غمز لي بعينه الضيقة على كوبي الشاي.

وزعت الأربع تذاكر على الأنفار، وتجادلت مع الأنفار، وحين أشحت بنظري عن الأنفار وجدت الكمسري يغمز لجاره ويضحك.

كانا ينظران على رجل خمسيني له لحية سوداء يجلس بجوار مراهق على الكرسي الفردي، وكان الولد يحمل كتبًا دراسية وكراريس وكان يضعهم فوق قضيبه، وكانت يد الخمسيني تحت الكتب، ثم فُتح

باب الأتوبيس الأول وصعد ركاب، ثم أُغلق الباب وقال الكمسري: ابعت تذاكر.

ثم رشف من كوب الشاي، وغمز لجاره ناحية الكرسي الفردي، وكان العجوز قد أخرج قضيب المراهق وكان ينظر إلى المراهق، وكان المراهق ينظر أمامه وهو ساكت، ثم توقف الأتوبيس وصعد ناس من باب الأتوبيس الثاني، فقام الكمسري من على الكرسي ونادى: تذاكر.

وعدت وتكلمت مع الأنفار، وتجادلت مع الأنفار، وفجأة التفت فوجدت الكمسري وجاره يضحكان ويغمزان لبعضهما وينظران ناحية الرجل الخمسيني الذي جلس على رجل الولد المراهق فوق الكرسي الفردي، وكان العجوز يحمل كتب المراهق وكراريسه في يده وينظر من نافذة الأتوبيس، ثم قام المراهق وحمل كتبه واتجه ناحية باب الأتوبيس الأول ونزل من الأتوبيس ونزل الرجل العجوز وراءه، وكان الكمسري وصديقه ينظران عليهما من نافذة الأتوبيس وهما يضحكان ويغمزان لبعضهما، ثم نزلنا من الأتوبيس وركبنا أتوبيسًا متجهًا إلى الحي العاشر، ثم نزلنا محطة المثلث.

38

دخلنا البلوك رقم 139، وصعدنا إلى الدور الثاني، وعصلج المفتاح في كالون الباب، ثم عصلج الباب في البلاط، ثم انفتح الباب أخيرًا، وكان المطبخ في أول الشقة، وكان بابه مغلقًا، وحين فتحناه وجدناه مملوءًا بكراتين، وبطاطين، وحاجات قديمة، قال محمد حامد إنها تخص صاحب الشقة.

كانت الأنبوبة والبوتاجاز موضوعين في أول الصالة، ووضعنا الحلل والملاعق والأطباق بجوارهما، رمينا شنط الملابس في الصالة، رصينا الأرز والسكر والعدس والبصل والشاي بجوار الحلل والملاعق والأطباق على الترابيزة الصغيرة التي بجوار البوتاجاز والأنبوبة.

كانت الشقة في الداخل غرفتين وحمَّام: غرفة تطل على التكعيبة التي في مدخل العمارة والشارع، وغرفة وحمَّام تطلان على مسقط البلوك. اختار محمد حامد السرير الذي تحت الشباك المطل على المسقط مباشرة له. كان محمد حامد يمسك قضيبه بيسراه وهو مستلقٍ على السرير، كان محمد حامد يكلمنا وهو يمسك قضيبه بيسراه ومستلقٍ على السرير، كان محمد حامد يذاكر وهو ماسك قضيبه بيسراه ومستلقٍ على السرير، كان محمد حامد ينظر إلى

المسقط ويتابع شبابيك العمارة وهو يمسك قضيبه بيسراه ومستلق على السرير.

في يوم، صحت الشقة كلها في السابعة والنصف، ووقفت الشقة كلها في البلكونة، ونظرت إلى الفتاة التي ابتسمت لمحمد حامد وهي تعبر من تحت التكعيبة.

كان اسم الفتاة "نورا"، وكانت في أولى ثانوي أدبي، وكان أنفها كبيرًا وصدرها كبيرًا ومؤخرتها كبيرة، وكانت لها صديقة في العمارة المجاورة في نفس البلوك، كان لصديقة نورا حاجبان كثان وصدر يُرى بالكاد، وكانت بلا مؤخرة.

في ليلة، رمت نورا من الشباك ورقة في المسقط، ورفع محمد حامد يسراه من على قضيبه، ونزل من على السرير وجرى على المسقط، وكنت أرى صديقة نورا التي بلا صدر وبلا أرداف تقف وراء شيش الشباك وتتابع محمد حامد وهو يمسك الجواب في مسقط العمارة.

39

جيراننا كانوا موظفين أو مدرسين أو ما شابه، كانوا ثلاثة: الأول تخين وله خدود حمر وشعر أصفر وعيون خضر، والثاني قصير

مثل محمد حامد، والثالث أسود. كانوا يعرفون بأمر المطبخ المغلق والثلاجة المتهالكة وقعدة الحمَّام والأسرَّة التي تلامس الأرض إذا اعتليتها، كانوا يعرفون الأستاذ عبد العزيز صاحب الشقة، وكانت شقتهم الآن نظيفة وأنيقة وثلاجتهم جديدة، وكنا نضع فيها الفراخ والبط التي نجلبها من البلد حين تفسد ثلاجة عبد العزيز المتهالكة.

ومرة تشاجرنا كلنا مع محمد حامد. بدأت الخناقة حين دخل محمد حامد الحمَّام ورآني، ووجد آثار شبشبي الجلد فوق القاعدة، قال محمد حامد وهو يقف على باب الحمَّام: إيه اللي بتعمله ده؟!

وقلت: ما أنت شايف!

وقال محمد حامد: دي عمايل؟!

وقلت: ما أنت شايف!

تدخل الآخرون في الخناقة، وذكـروا الثلاجة والمطبخ المغلق والأسرَّة والترابيزات، وقالوا لمحمد حامد: هات عبد العزيز.

كان عبد العزيز يشبه الشيخ سفاية، وكان يرتدي طاقيته وجلابيته، وكان موظفًا على المعاش، وكان طول الجلسة معنا يلقي نظرة غريبة عليَّ. رفض عبد العزيز أن تُرمى الحاجات القديمة ويفتح المطبخ، ورفض تغيير الثلاجة، ولم يشتر - بعد ساعتين من الجدال - سوى ترابيزتين للمذاكرة!

انقسمنا فريقين بعد الخناقة، كل ثلاثة في غرفة. كانت كل غرفة تطبخ وحدها وتأكل وحدها، ولا يعرف أحد في الغرفة ماذا طبخت الغرفة الأخرى، عدا يوم الفراخ، كل غرفة تصر إصرارًا عجيبًا على أن يصل بخار الشوربة إلى الغرفة التي لم تطبخ فراخًا، الحقيقة ليس البخار وحده بل والكلام أيضًا، كان أحدنا يصيح: الفرخة دي صدرها كبير قوي!

وكان أحدهم يصيح: دا بط مش فراخ.

كان أحدنا يصيح: شوية شوربة معتبرين.

وكان أحدهم يصيح: كبدة الفرخة زي العسل.

كان ســكان الغرفة الأخرى قد نزلــوا الكفر، وكنت أنا ومحمد حامــد وراني طه عبد اللطيف، وكنــا نفكر بعد صلاة الجمعة ماذا نأكل؟ ماذا نأكل؟

ذهبت إلى شقة جيراننا، وقابلني الشاب ذو الخدود الحمر، وطلبت منه أن يحضر الفرخة التي في الثلاجة، أغلقنا البلكونة والشباك وطبخنا الفرخة وأكلناها، وحين عاد ابن الأبلة خديجة وابن الأبلة هانم وابن ناظر المدرسة من الكفر واكتشفوا أننا أكلنا فرختهم، قلنا لهم: مسامحين؟

سكتوا، وقلنا لهم: مسامحين؟

سكتوا، ولم نضع فراخًا أو بطًّا بعدها في ثلاجة الجيران.

40

سلالم كلية العلوم كانت عريضة، والمسافة بين السلم وباب الكلية الخشبي والأثري كانت كبيرة، وكان المدرج الخاص بإعدادي صيدلة في آخر الطرقة، والمعامل الخاصة بإعدادي صيدلة في قسم الكيمياء، والحيوان، والنبات، في آخر الطرقات.

أول محاضرة أحضرها كانت في مادة الحيوان. كان الدكتور شابًا، وكان ألدغ، وكان منسجما ومتحمسًا في الشرح، وفجأة توقفت لدغته وتبدد انسجامه وانطفأ حماسه، وأشار ناحية البنش وقال لأحد الطلبة: اطلع بره يا قُلة!

وضحك المدرج وخرج الطالب وهو يقول: هاطلع بس أنا مش قُلة!

وضحك المدرج كله.

عاد التدفق والحماس إلى دكتور الحيوان مرة أخرى، وكنت مرعوبًا من فكرة اللغة! كنت لا أخاف الغربة، ولا الوحدة، ولا السهر، كل ما أخشاه هو اللغة، الدراسة التي بالإنجليزي والشرح

الذي بالإنجليزي والامتحانات التي بالإنجليزي.

في البداية، واظبت على فتح القاموس والترجمة، كنت أفتح القاموس وأبحث عن الكلمة وأختار من المعاني المعنى المناسب للكلمة، وأكتب المعنى بالعربي فوق الكلمة التي بالإنجليزي، وأحاول أن أفهم المعنى، وأحاول أن أحفظ الجملة التي بالإنجليزي، وأحاول...

أغلقت القاموس والكتاب، وأشعلت سيجارة، وقال لي محمد حامد: حاول!

وقال لي زملائي: اصبر!

تركت الشقة ونزلت إلى الشارع، وذهبت إلى سوق الحي العاشر، وجلست على أحد المقاهي المنتشرة هناك، كان الناس يغادرون الكراسي المحطوطة تحت التليفزيون، وكان ناس يجلسون على الكراسي المحطوطة تحت التليفزيون، وكان صبي المقهى يرفع يده والفلوس مثنية بين إصبعيه وينادي: أقعد على الجديد يا أستاذ، أقعد على الجديد يا كابتن، أقعد على الجديد يا ابو خالو.

كانت الكراسي المحطوطة تحت التليفزيون مزدحمة بالعمال والطلبة، وكان العمال كلهم يرتدون الجلاليب الصعيدية، والجلاليب الفلاحي. وسألنا صبي المقهى وهو يمسك بشرائط الفيديو: عربي ولّا أجنبي؟

ونطق أصحاب الجلاليب في نفس واحد: أجنبي!

كان الفيلم لـ"سيلفستر ستالوني"، كان فيلم روكي الجزء الأول، وكان أصحاب الجلاليب لا يعرفون اللغة، ولا يتابعون شريط الترجمة، لكنهم كانوا مستمتعين تمامًا، كانوا يحتسون مشروباتهم الساخنة والباردة ومستمتعين تمامًا. كان الفيلم في وادٍ وفي خيالهم كانوا يعيشون في وادٍ آخر، لكنهم كانوا مستمتعين تمامًا.

أشعلت سيجارة، وسيجارة أخرى، وسيجارة ثالثة كانت الأخيرة في العلبة، فطبقتها ورميتها تحت قدمي، وأكملت الفيلم، وغادرت القهوة.

كنت عائدًا إلى الشقة، حين رأيت حبيبة محمد حامد ذات الأنف الكبير والصدر الكبير والمؤخرة الكبيرة تقف - بعد بوابة مدرسة الحي - مع جارنا ذي الخدود الحمر. دخلت الشقة ولم أقل لمحمد حامد شيئًا. نحيت القاموس جانبًا وفتحت الكتاب وذاكرت، استعدت قدراتي القديمة التي نجتني من زُخمة الشيخ رمضان، ومن حصوة الشيخ طلعت الحصري، ومن "الحاجة"، حفظت!

كنت أحفظ الدرس وأنا أفهم كل المعنى، وأحفظ الدرس وأنا أفهم جزءًا من المعنى، وأحفظ الدرس وأنا لا أفهم شيئًا من المعنى، حفظت العملية التناسلية في الضفدعة، وخطوات الانقسام في الأميبا، وطريقة التكاثر في كائن له أهداب ويشبه نعل الحذاء ولم أعد أذكر اسمه

الآن، حفظت عمليات البناء الضوئي والأيض في النبات، حفظت عمليات كيميائية طول العملية الواحدة عشر صفحات، وحفظت مركبات كيميائية طول المركب الواحد يملأ صفحة. كنت حينها لا أفهم، وإلى الآن لا أفهم.

ماذا يعني أن رمز الكربون هو "Co"، ورمز الكربون الثنائي هو "Co 2" ورمز الكربون الثلاثي هو "Co3"؟

هل سنُزعج الكالسيوم لو قلنا إن رمزه ليس "CA"؟

هل سيغضب الحديد لو قلنا إن رمزه هو "Ca" ورمز الكالسيوم هو "Fe"؟

هل ستختلط الأنساب، ولا بد من بعث مندل من جديد؟ أنا لا أعرف! هل تعرف أنت؟!

المهم أني حفظت، حفظت مسائل رياضيات كاملة، ووضعتها مثلما هي في ذاكرتي في كراسة الإجابة!

هذه الرياضيات هي الأخرى مشكلة، أنا للآن أبحث عن سر بكاء جدي المتواصل، في الفرح والحزن، وأنت تقول لي لنفترض.

لنفترض أن س + ص= ع

إذا كنا لم نقدر بعد على تفسير الواقع المثبت، فلماذا تطلب مني إثبات ما حدث في الخيال؟!

هل تطلب مني أن أكون سعيدًا، وأنا أكتب "هـ.ط.ث" بعد أن أثبت ما حدث في الخيال، ولا ترى حيرتي وقلقي وأنا عاجز عن أن أكتب "هـ.ط.ث" أمام ما حدث في الواقع؟!

كنت أنقل جدول الامتحانات المعلق في مدخل كلية العلوم حين سمعت طالبًا يقول: أزفت الآزفة. وكانت الآزفة قد أزفت فعلًا، فسجنت نفسي في شقة الحي العاشر، أطبخ، وآكل، وأذاكر، وأشخ وأنا جالس فوق القعدة الأفرنجي، وأذاكر داخل الشقة، لم أعد إلى الكَفر حتى انتهت امتحانات إعدادي صيدلة.

سمعت أن النتيجة ظهرت، فغادرت الكَفر وركبت القطار، كنت مترقبًا وخائفًا، كنت قد عاهدت اللـه أن أصوم أسبوعًا كاملًا لو نجحت بلا مواد، لم أنذر للـه شيئًا لو نجحت بمادة أو مادتين، كنت أريد أن أنجح بلا مواد كي أدخل المدينة الجامعية بالحي السادس، وكنت أؤكد هذا العهد مع اللـه كل خمس دقائق وأنا راكب في القطار.

كان القطار خاويًا، وكان بطيئًا، وكان بائع العسلية يخبر الركاب بقصة صاحب مصنع العسلية الذي أفلس ويبيع الآن عسليته بتراب الفلوس، كان البائع يرفع يده بالعسلية وينادي: العشرة.

يقول المنادي: العشرة.

يقول المنادي: مش هنقول بجنيه.

يقول المنادي: مش هنقول بنص.

يقول المنادي وهو يهز يده بالعسلية: العشرة.

يدور المنـــادي بعينيه على ركاب العربـــة، يلتفت المنادي إلى الركاب الذين في مقدمة العربة.

يقول المنادي: علشان صاحب المصنع ما يتحبس، علشان نفك دينه ونرجعه لمراته.

يقول المنادي: العشرة بربع.

يقول المنادي: آدي كمان عشرة بربع.

وكنت أعاود تأكيد عهدي مع اللـه أنني لو نجحت من الدور الأول وسكنت المدينة الجامعية بالحي السادس فسأصوم للـه أسبوعًا كاملًا.

كانت نتيجة إعدادي صيدلة معلقة عند الباب الخلفي لكلية علوم، وكنت وحدي بالمكان، كنت أُفتش في الكشوفات الورقية المعلقة داخل الأطر الخشبية، كانت الأسماء مرتبة في الكشوفات حسب التقدير، وكنت أعاهد اللـه أن أصوم أسبوعًا كاملًا لو نجحت ودخلت المدينة الجامعية، وحين أنهيت كشوفات الحاصلين على تقدير عام امتياز وجيد جدًا، ودخلت في كشوفات الحاصلين على تقدير عام

جيد، عاهدت اللـه أن أصوم أسبوعين لو نجحت من الدور الأول، ووجدت اسمي في آخر كشف للناجحين بإعدادي صيدلة بتقدير عام جيد، ودخلت المدينة الجامعية.

41

كان مسجد المدينة الجامعية يقع خلف البوابة مباشرة، وكانت مدينة مبارك للطلاب على اليسار، وفي الداخل كان مطبخ المدينة ومبنى أبو بكر، ومبنى عثمان، ومبنى خالد، ومبنى عمر.

كان مطبخ المدينة يفتح أبوابه ويغلقها ثلاث مرات في اليوم، كان يفتح أبوابه في تمام السادسة وحتى الثامنة لوجبة الفطار، ومن أول الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة للغداء، ومن أول الساعة السابعة وحتى التاسعة للعشاء. كانت هناك سلالم عالية جدًّا تؤدي إلى المطعم في بداية المبنى وفي نهايته، وكان الدور الذي تحت السلالم الممتد بطول المطعم يستخدم للطبخ.

كانت وجبة الإفطار ثابتة: فول، وجبن مثلثات، ومربى، وعيش ونصف ليمونة. وكانت وجبة الغداء يوم الثلاثاء ثابتة أيضًا: أرز وبسلة وجزر وبيض. أما الأيام الأخرى فموزعة بين اللحم والفراخ والمكرونة والفاصوليا الخضراء والبيضاء والكوسة والسبانخ والموز

والبرتقال. وكانت وجبة العشاء ثابتة: عيش، وجبن، وحلاوة شعر، وزيتون أسود، وزبادي. كنت لا أحب الزبادي، كنت أعطيها لزملائي في الغرفة التي كانت بالدور الثاني بمبنى عثمان بن عفان، وفي الغرفة التي كانت بالدور الثالث بمبنى خالد، وفي الغرفة التي كانت بالدور الأرضي بمبنى عمر، وفي الغرفة التي على السطوح رقم 509، التي سكنت بها في الفرقة الرابعة بكلية الصيدلة.

كانت آخر غرفة على السطوح، بعدها كنت أرى السلم الحديدي المؤدي إلى خزانات المياه الزرقاء الخاصة بالمبنى، وكنت أرى بداية السلم الداخلي المؤدي إلى الأدوار الأربعة لمبنى علي بن أبي طالب.

كانت الغرفة رقم 509 أمام الحمّامات مباشرة، وكان الماء لا يصل إليها، وكانت رائحة الأمونيا تفوح منها باستمرار، وكان تيار الهواء القادم من على السطوح يبدد تيار الأمونيا الهابب من داخل الحمّامات.

كان في الغرفة خمسة أسرّة، ويسكنها خمسة أفراد، ثلاثة في كلية العلوم ورابع في كلية الدعوة وأنا. بعد الباب مباشرةً، كان سرير أحمد أبو المعاطي، ووراءه كان سرير أشرف محمود، الطالبين بالفرقة الثالثة بكلية العلوم قسم الفيزياء، وعلى يسار الباب بجوار الحائط كان سرير محمد ربيع الطالب ببكالوريوس العلوم قسم الفيزياء، وكان سريري متعامدًا على سرير محمد ربيع، وسرير الشيخ عادل

الموجود تحت الشباك والممتد بطول الحائط. كان أمام كل سرير مكتب حديدي، وعلى كل مكتب بطانية رمادية مفروشة، وكانت الكتب الخاصة بكل ساكن محطوطة فوق البطانية.

كان على مكتب أحمد أبو المعاطي طفاية سجائر، وعلى مكتب الشيخ عادل مصحف، وعلى مكتب محمد ربيع صبانة بلاستيكية لونها روز، ولا يوجد على مكتبي ومكتب أشرف محمود شيء مميز غير الكتب.

بعد شهر من بداية الدراسة دخل علينا الغرفة شاب يحمل حقيبة وأغطية سرير ومخدة وبطانية، ألقى السلام ودخل بحقيبته وبالأغطية وبالبطانية الرمادية، كان اسمهُ عادل أيضًا، وكان شعره مدفوعًا للأمام، وكانت البثور مفروشة في وجهه، كان يرتدي ترنج رياضيًّا وحذاء رياضيًّا، وكان في الفرقة الأولى بكلية التربية الرياضية، وكان يبدو أكبر سنًّا منا كلنا.

بعد قليل، جاء ثلاثة عمال يحملون السرير الحديدي والمكتب، ونصب أحدهم السرير الحديدي في وسط الغرفة وفرش لعادل الأغطية وركب كيسة المخدة ووضع البطانية الرمادية فوق المكتب.

نزلنا غاضبين، وقابلنا مدير المبنى، كان طويلا، وجسده رشيقًا عدا منطقة البطن، وقلت لمدير المبنى بعد أن احتد النقاش: ينام على صدري؟!

وقال مدير المبنى: لأ، هينام على سرير.

وقال أبو المعاطي: لا يوجد مكان.

قال المدير: اتسكن يعني اتسكن.

وخرجنا من عند مدير مبنى علي بن أبي طالب، وصعدنا السطوح، ودخلنا الغرفة رقم 509، وكنا صامتين نحن الستة.

42

كان الشيخ عادل يعطي ظهره للحيطة ويستقبل باب الغرفة المفتوح ويدلدل ساقيه، وكان الجزء السفلي من ساقيه عاريًا ومعلقًا في الهواء، وكان يفتح المصحف ويضعه فوق ركبتيه ويقرأ، كان الشيخ عادل لا يقرأ القرآن إلا جهرًا، وكان الجزء العلوي من جسده يهتز ويتقدم وراء المصحف ثم يتراجع خلف المصحف، وكان لا يقرأ القرآن إلا جهرًا، وكان سرير الكابتن عادل محطوطًا في منتصف الغرفة، كان رأس الكابتن عادل تحت الشيخ عادل مباشرة، وكان الكابتن عادل لا ينقل رأسه من على مخدة السرير.

كان الكابتن عادل يصحو في تمام الساعة السابعة ويلبس الترنج الرياضي والكوتشي الرياضي ويضع الجل في رأسه وينزل إلى

المطعم لتناول وجبة الفطار، ثم يصحو بعد الظهر للغداء، ثم يصحو في تمام الساعة التاسعة مساءً.

كان الكابتن عادل يؤكد على علبة الزبادي الخاصة بي ويخرج ليصرف العشاء يوميًا من مطعم المدينة. كان عادل يخرج من المدينة ويشتري لنا الطعمية الساخنة والبطاطس والباذنجان من مطعم نعمة. كان عادل يسخن اللانشون مع شرائح الطماطم والبصل والفلفل على السخان الكهربائي. كان عادل يضع رأسه على المخدة بمجرد انتهائه من تناول العشاء، وحين يسمع صوت الشيخ عادل يعلو بالتلاوة، يهب من على المخدة ويقول: صدق اللـه العظيم. اقفل المصحف يا شيخ عادل خلينا ننام شوية!

كان الشيخ عادل يحاول أن يهدئ صوته لكنه لا يستطيع، وكان الكابتن عادل يهب من نومه ويصرخ في وجه الشيخ عادل: صدق اللـه العظيم. اقفل المصحف يا شيخ عادل خلينا ننام شوية!

كان أحمد أبو المعاطي يذاكر وهو نائم، ويقرأ الروايات والجرائد وهو نائم، ويدخن وهو نائم، وحين يأتي النوم يضع سبابته في فمه وينام. وكان أشرف عند النوم يرتدي طاقية في رأسه ووجهه، كان في الطاقية نافذتان صغيرتان أمام عينيه ونافذة أكبر أمام أنفه وفمه. وكان ربيع يقرأ الروايات باستمرار، ولم يكن يصلي، وحين سأله الشيخ عادل: لماذا لا تصلي؟ قال له: أبويا وأمي ما عودونيش عليها.

كان مشتركًا في مكتبة مبارك العامة، وكان يستعير الكتب والروايات منها بصفة دورية، وكان أحمد أبو المعاطي يقرأ روايات مكتبة مبارك وراءه، وكنت حينها لا أحب الروايات ولا أقرأها.. يا ربي!

كل هذا ولم أقل لكم كيف دخلت عالم الروايات؟!

43

مشيت من تحت اليافطة الكبيرة التي كان مكتوبًا عليها "جامعة الأزهر" وبعد غرفة الأمن بخطوة كان مجموعة من الرجال واقفين، كان أحدهم أسمر وأصلع وكانت سوالفه بيضاء وجانبا رأسه لونهما أسود، ولم يكن يرتدي نظارة شمسية وكان يتكلم، وكانوا ينصتون لكلامه، وكانوا كلهم يرتدون نظارات شمسية سوداء، وحين أطلت النظر إليهم للحظة، وجدت الرجل الأصلع ينظر إليَّ نظرة ذات مغزى، فالتفت للطريق.

كان على يمين الطريق مجموعات من الطلبة، بعدها مجموعات من الطلبة، بعدها مجموعات من الطلبة، وكان على يسار الطريق مجموعات من الطلبة، بعدها مجموعات من الطلبة، بعدها مجموعات من الطلبة، وكانت كل مجموعة من مجموعات الطلبة تقرأ في

جريدة، وكان أحدهم يتكلم، وكان أحدهم يتكلم، وكان أحدهم يتكلم، ثم تكلم أحدهم، وقال: إسلامية.. إسلامية.

وكنت أهرول كي أجد مكانًا أمشي فيه قبل أن يغلق الطريق، وحين التفت للجلبة التي حدثت ورائي، وجدت باب الجامعة قد سُد، ورأيت عربات الأمن وراء باب الجامعة المسدود، وكان العساكر المقنعون يقفون فوقها ويشهرون أسلحتهم.

وكانت المجموعات تملأ الطريق وأنا أجري أمام كلية الطب البشري، وأمام مبنى إدارة الجامعة، وعند كلية العلوم، ثم اختفت المجموعات بعدما اجتزت مبنى كلية العلوم، وحين وصلت كلية الصيدلة، كانت مجموعات الطلبة تملأ الساحة التي تتوسط مدرجات الكلية الأربعة، والمبنى الخاص بالإدارة والأقسام والمعامل، وحين دخلت المدرجات كانت مجموعات من الطلبة، وحين دخلت المبنى الخاص بالإدارة والأقسام والمعامل كانت مجموعات من الطلبة، وفي ممرات الأقسام كانت مجموعات من الطلبة، وداخل المعامل كانت مجموعات من الطلبة ومجموعات من الطلبة ومجموعات من الطلبة، وكان الطلبة يقولون: إسلامية.. إسلامية.

وعلى طول طريق الرجوع إلى المدينة الجامعية كانت مجموعات الطلبة تتكلم عن الكلام الذي كان مكتوبًا في الجريدة، كان أحدهم يقول: وزير الثقافة.

وكان أحدهم يقول: الكفرة.

وكان أحدهم يقول: الرواية اسمها "وليمة لاعشاب البحر".

حتى وصلنا قريبًا من باب المدينة الجامعية.

كانت عربات الأمن كثيرة، وكان العساكر فوقها كثيرين، وحين اقتربت منهم وجدت مجموعة الرجال الذين كانوا يقفون بعد غرفة أمن الجامعة بخطوة، يقفون الآن أمام عربات الأمن، وكان الرجل الأصلع الذي لا يرتدي نظارة شمسية يتكلم، وكانوا الذين يرتدون نظارات شمسية سوداء ينصتون، وحين أطلت النظر إليهم للحظة، نظر إليَّ الرجل الأصلع نظرة ذات مغزى فالتفت للوراء وصعدت سلم ملك الكوكتيل، ورأيت وأنا واقف على سلالم ملك الكوكتيل مجموعات الطلبة متجمعة وراء بوابة المدينة الجامعية، وكانت المجموعات تهتف: إسلامية.. إسلامية.

44

جاءت البنات من ناحية مسجد "نوري خطاب"، كن يرتدين الجيب والجلاليب، ورأيت بنتًا منهن ترتدي البنطلون تحت الجلابية، وكانت البنت التي ترتدي البنطلون تحت الجلابية في

مقدمتهن، وكانت تصرخ: إسلامية.. إسلا...

وأمرت مجموعة الرجال الذين يرتدون النظارات الشمسية العساكر بالنزول من العربات، فنطت العساكر من العربات، وجروا، ووقفوا في وجه البنت التي ترتدي البنطلون تحت الجلابية، وارتفعت أصوات البنات وراءها، وكانت حادة وقاطعة وتذهب رأسًا إلى السماء، وفجأة، امتلأت السماء بالحجارة، وسقطت الحجارة من السماء على الأرض، ودوى صوتها على رصيف الشارع، وفي الجنينة التي تتوسط رصيف الشارع، وعلى صاج العربة الـ504 البيج، التي تشبه عربة أبو صديق أخي الذي سُرقت جزمته في الجامع، وجاء من الجامع بآخر جزمة تبقت على الدرج الخشبي الذي بجوار باب الجامع إلى بيتنا، وترك الجزمة في بيتنا تحت الكنبة التي في الصالة، ثم ركب بجوار والده العربة البيج الـ504، التي تشبه العربة التي خرجت السيدة تجري منها، وكانت الحجارة تتساقط أمام السيدة وفوقها، ودوى صوت الحجارة فوق دماغها، وصرخت السيدة وانبجس الدم من دماغها، وظلت السيدة تجري وتصرخ حتى صعدت سلم ملك الكوكتيل، والتف عمال ملك الكوكتيل حولها وكانوا يصبون على يدها ورأسها الماء، وكانت السيدة راكعة وسط المحل، وكان صاحب المحل يقدم لها الكرسي، ثم جلست السيدة منهارة على الكرسي، وعلت أصوات الأولاد والبنات: إسلامية.. إسلا...

ورمى العساكر القنابل من الفوهات، وتساقطت القنابل أمام بوابة المدينة ووراءها، وفرت البنات مذعورات، وهرب الأولاد ثم عادوا ورموا قنبلة على العساكر، وكانت الريح على العساكر، وفرت العساكر مذعورة، وهبت الريح وفيها دخان القنابل على سلم ملك الكوكتيل، وفر عمال ملك الكوكتيل، وفر صاحب ملك الكوكتيل، وفرت الناس التي كانت داخل محل ملك الكوكتيل، وفرت السيدة التي كانت جالسة على الكرسي.

وملأ الناس شوارع الحي السادس، وكان أهل الحي السادس يقفون في البلكونات وينظرون إلينا فرحين وكانوا يقولون: إسلامية.. إسلامية.

وتبددت الريح، وتبدد دخان القنابل المسيلة للدموع، وتوقفت الدموع، وكان الأولاد متجمعين وراء بوابة المدينة الجامعية، والعساكر متجمعين أمام بوابة المدينة الجامعية، وكانت العربات قد اختفت من على الرصيف، وكان الرصيف أسود تمامًا، وكانت الجنينة الخضراء في منتصفه وكانت عليهما الحجارة متهشمة.

ورأيت عساكر يحملون عساكر، ورأيت ناسًا يحملون ناسًا، وسمعت صوت عربة الإسعاف، ورأيت السيدة التي كانت جالسة على الكرسي، ورأيت كل العاملين بمحل ملك الكوكتيل، وسمعت صوت عربة الإسعاف، ورأيت أهل الحي السادس واقفين صامتين

في الشبابيك والبلكونات، وظهرت عربة الإسعاف قادمة من ناحية مسجد "نوري خطاب"، ومشيت في اتجاه مسجد "نوري خطاب"، ورأيت عساكر يحملون عساكر، ورأيت أهل الحي السادس واقفين صامتين في الشبابيك والبلكونات، وسمعت صوت عربة الإسعاف، وحين اقتربت من نهاية سور المدينة الجامعية نطيت من على سور المدينة ودخلتها.

وكانت مجموعات من الشباب، ومجموعات من الشباب، ومجموعات من الشباب، وكان في كل مجموعة شاب مُصاب.

كانت عيون خارجة من بؤبؤها، وكان بؤبؤها بلا عيون، وكان الخرطوش مفروشًا في الوجوه والرؤوس والأجساد كجدري، وحين جاءت عربة الإسعاف امتنع المجدورون عن صعودها.

45

كان أهل الغرفة رقم 509 كلهم موجودين، كان الكابتن عادل يتقلب في السرير، وكان الشيخ عادل يقرأ القرآن وظهره للحائط، وكان محمد ربيع يقرأ في رواية "السراب"(*)، وكان أحمد أبو المعاطي يُدخن ويضع رماد السجائر في الطفاية الموضوعة على

(*) إحدى روايات الأديب الكبير "نجيب محفوظ".

المكتب، وكان أشرف نائمًا على سريره والطاقية في رأسه، وفجأة نهض الكابتن عادل وقال للشيخ عادل: صدق الله العظيم. وطي صوتك شوية يا شيخ عادل.

وكان الشيخ عادل يقول للكابتن عادل: اثنان لا ينامان يا عادل، الخائف والجعان!

وكان الكابتن عادل يؤمن على كلام الشيخ عادل، وكان الكابتن عادل يسب دين أم العيال التي تقف على باب مطعم المدينة وتمنع سكان المدينة من دخوله.

وكان محمد ربيع، وأحمد أبو المعاطي، يتكلمان عن رواية "وليمة لأعشاب البحر"، وعن "حيدر حيدر"، وعن وزير الثقافة، وعن "إبراهيم أصلان" و"حمدي أبو جليل"(*)، وعن جريدة الشعب، وفجأة نهض الكابتن عادل من على السرير وسب جريدة الشعب، وسب الشعب، وقال بعلو صوته: أنا جعان!

وجاء الخبر بأن أهالي الحي السادس يوزعون شنط الطعام على طول سور المدينة الجامعية، فوثب الكابتن عادل من رقدته وارتدى الكوتشي، وغادر الغرفة وغادرنا وراءه، وحين وصلنا سور المدينة كانت مجموعات من الشباب ومجموعات من الشباب ومجموعات

(*) إبراهيم أصلان وحمدي أبو جليل، روائيان مصريان معروفان تمت إحالتهما للتحقيق لترأسهما السلسلة التي أصدرت "وليمة لأعشاب البحر".

من الشباب، وكان مع كل مجموعة ساكن من سكان الحي السادس يوزع أكياس الطعام عبر الأعمدة الحديدية التي في سور المدينة الجامعية.

46

استمر الإضراب عن مطعم المدينة الجامعية لأيام، واستمر أخذ الطعام من أهالي الحي السادس لأيام، واستمر وجود عساكر الأمن المركزي ومجموعة الرجال أمام بوابة المدينة، وكنت لا أذهب إلى الكلية، كنت أذاكر بالنهار وأرتاد الاعتصام ليلًا، وكانت الطلبة قد استولت على مسجد المدينة، وكانوا يذيعون عبر مكبرات الصوت طلباتهم بسحب الرواية من السوق، وإقالة وزير الثقافة، والتحقيق مع كل المتورطين في إصدار الوليمة، وكانوا يتفاوضون مع مجموعة الرجال عبر مكبرات الصوت، وكان الرجل الذي لا يرتدي نظارة شمسية يطلب منهم الرجوع مائة متر بعيدًا عن بوابة المدينة الجامعية، وكانوا يطلبون منه أن ترجع عربات الأمن المركزي وجنود الأمن المركزي في آخر الشارع المقابل لبوابة المدينة، وغادرت الاعتصام في الثانية صباحًا ولم يسفر التفاوض عن شيء.

بعد صلاة الظهر قالوا إن التليفزيون جاء، فجريت مع مجموعة

من الشباب باتجاه بوابة المدينة. كانت مجموعة شباب - واحدة - كبيرة، وكان رجل يحمل الكاميرا ومتأخرًا عن المجموعة الكبيرة، وفي وسط المجموعة الكبيرة كانت "جميلة إسماعيل"(*) ترفع الميكروفون وتسأل: قريتوا الرواية؟

وصمتت المجموعة الكبيرة، وأعادت جميلة إسماعيل سؤالها، ولم يُجب أي أحد من المجموعة الكبيرة على سؤالها. وكانت جميلة إسماعيل تسألنا عن سبب اعتراضنا، وكان شاب يقول إن الرواية كلها كُفر وإلحاد.

وكانت جميلة إسماعيل تسألنا: قريتوا الرواية؟

وردت المجموعة الكبيرة: قرينا جريدة الشعب.

وكنت أُفكر في الرواية، وفي سؤال جميلة إسماعيل عن الرواية وأنا عائد إلى مبنى علي بن أبي طالب، كنت لا أحب الروايات ولا أقرأها حينها، وحين دخلت الغرفة رقم 509، كانت الشبابيك مغلقة، وكانت الغرفة مظلمة وساكتة، وحين التفت ناحية سرير محمد ربيع وجدته، كان جالسًا فوق رواية "السراب"، وكان يرتدي الجلابية البيضاء والطاقية البيضاء، وكان يأكل الجميز وينظر إليّ.

(*) مذيعة تليفزيونية وناشطة مصرية معروفة.

47

فتحت رواية "السراب" وقرأت، انتهى النهار وجاء الليل وسكن الليل وأنا أقرأ في رواية "السراب". كان محمد ربيع قد نام، وكان أبو المعاطي قد وضع إصبعه في فمه ونام، وكان الشيخ عادل والكابتن عادل قد ناما، وكان أشرف يلبس الطاقية في رأسه ويتقلب في سريره، وكنت أرفع رأسي عن السراب وأنظر ناحية أشرف، وأتأمل في النافذتين الضيقتين أمام عينيه وفي النافذة التي أمام أنفه وفمه، وكنت أتساءل: هل نام؟

كنت أشك: هل عيناه مفتوحتان أم مغمضتان؟ وكنت أهرب من الحيرة وأعود إلى كامل رؤبة لاظ ولا أستطيع أن أنام.

جاء صوت من ناحية سرير أشرف يقول: اطفي النور خلينا ننام.

وهب الكابتن عادل من على المخدة، وقال: صدق الله العظيم. اقفل المصحف يا شيخ عادل خلينا ننام.

وضحك أشرف، وضحك الكابتن عادل، وقام الكابتن عادل وهو يضحك وفتش عن بواقي الأكل وأكلها ثم نام، وكنت قد أغلقت رواية "السراب" ووضعتها أمامي على البطانية الرمادية فوق المكتب،

ومددت على السـرير وتغطيت بالبطانية وأغمضت عيني، وتقلبت في السرير، وأغمضت عيني ولم أنم.

48

في الصباح، ارتديت ملابسي وأخذت الكتب والمذكرات ورواية "السراب" وذهبت إلى الجامعة.

قرأت وأنا أمشي على السطوح، وقرأت وأنا نازل على السلم الداخلي أدوار مبنى علي الأربعة، قرأت وأنا أمر على غرفة مدير المبنى، قرأت وأنا نازل على سلالم مبنى علي، ثم صعدت الرصيف وقرأت، وكان الاعتصام قد فُض، وكانت عربات الأمن المركزي قد اختفت، وكانت العربات تملأ الرصيف، وكنت أقرأ رواية "السراب" وأنا أقف على الرصيف.

قرأت وأنا أمشي من تحت اليافطة الكبيرة المكتوب عليها "جامعة الأزهر"، قرأت حتى وصلت كلية الصيدلة، قرأت وأنا خارج من مدرج الفرقة الرابعة، قرأت وأنا نازل سلم بدروم الكلية لأحضر البالطو وعدة الصيدلانيات، قرأت داخل معمل الصيدلانيات، قرأت وأنا أخرج من معمل الصيدلانيات ومن مبنى كلية الصيدلة ومن الجامعة.

قرأت وأنا أدخل المدينة الجامعية، وأدخل مبنى علي، وأدخل الغرفة رقم 509، لم أتوقف عن القراءة حتى وصلت لآخر نقطة في رواية "السراب".

49

انتهت الفرقة الرابعة بكلية الصيدلة، ودخلت سوق العمل، ثم خرجت من سوق العمل ودخلت الجيش، ثم انتهت خدمتي بالجيش، لكن شغفي بالروايات لم ينتهِ، كنت في كل هذه المراحل أشتري الروايات وأقرأها وأركنها في البيت، كانت الروايات في البيت أكوام، أكوام، أكوام! وكانت أمي تقول: يا ابني هنودي الكتب دي كلها فين؟!

وكنت أشتري الروايات وأقرأها وأركنها في البيت.

ومرة قصدني صديقي الذي كان يحلم بأن يدخل كلية الصيدلة، لأذهب معه إلى المستشفى العام لإزالة كالو في قدمه، وكان صديقي مترقبًا وخائفًا، وكنت أقف معه خارج غرفة الجراحة، حين رأيت عمتي، ثم رأيت وراءها عمي، ثم رأيت وراءهما ابن عمي، ثم رأيت ناسًا كثيرين من شارعنا، وناسًا كثيرين من أقاربنا، وناسًا كثيرين من معارفنا، وكان الناس كلهم يسألونني: خير، أبوك مالوه؟

وكنت أنظر إليهم ولا أرد.

في الطريق إلى الزقازيق حكوا لي كل شيء.

قالت أمي: "كنا قبل صلاة الظهر، وكان يشرب الجوزة عندما جاءه الخبر بأن الحلزونة دايرة، فرح، وترك الجوزة، ولبس الجلابية وأخرج العجلة، وكنت أقول له: بلاش العجلة! وكان ينظر إليّ ويضحك، وكان يقول: الدهن في العتاقي. حين أعطاني ظهره وتحرك على العجلة، قلت: ربنا يقصد جبرك. كنستُ البيت وأنا متوغوشة، وغسلت الهدوم وأنا متوغوشة، ونشرت الهدوم وأنا متوغوشة، ووضعت الأكل على النار وجلست أمام النار، وهدأت النار على الأكل وأنا متوغوشة، وخرجت إلى المدخل وفتحت البوابة، ونظرت في الشارع على اليمين، ونظرت في الشارع على الشمال، وأغلقت البوابة، ومشيت في المدخل، وحين وصلت صالة الشقة سمعت صويت عمتك!

كانت النسوان تقول: حُطي حاجة على رأسك، وكانت النسوان تقول: غيري الجلابية، وكانت النسوان تقول: البسي حاجة في رجلك. وكنت لا أعرف رأسي من رجلي من الجلابية. كنت أصيح على نغمة واحدة: "يا حبيبي، ياحبيبي، يا حبيبي!".

قال رمضان ابن خالة أبي: "كنت راجعًا من الغيط، وكنت قد اعتليت الكوبري، وكان هو راكبًا على العجلة ويعدي الأسفلت،

وفجأة، ظهرت عربة نصف نقل وصرخ صوت فراملها في المكان، ولامس بوز العربة عجلته الورانية، كانت يده فوق الجادون، وكان جسمه فوق الجادون، وكان كله فوق الجادون، وكان مندفعًا بلا اتجاه، حتى اصطدم رأسه بالكوبري، وكنت وحدي بالمكان، وكنت أصيح على نغمة واحدة: "يا حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي!".

وقال الأستاذ محمد عثمان: "كان ممددًا في أرضية العربة، وكنت جالسًا بجواره، كنت أضغط بطرف جلابيتي على الجرح الذي فوق الحاجب اليمين، والجرح الذي فوق الصدر ناحية اليمين، وكنت أناديه ولا يرد، وكنت أسأله ولا يرد، وكنت أهزه ولا يرد، وحين دخلت العربة مستشفى السنبلاوين قالوا إن طوارئ المنصورة مغلقة اليوم، وقالوا إن طوارئ الزقازيق مفتوحة اليوم، وكنت أصيح على نغمة واحدة: "يا حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي!".

50

كان أبي ممددًا على السرير في استقبال الطوارئ بمستشفى الزقازيق الجامعي، كانت عيناه مغلقتين، وكانت خمس غرز سوداء معقودة فوق حاجبه اليمين، وكانت غرزتان سوداوان معقودتين فوق عظمة الترقوة، وكانت فلنته الداخلية كلها دم، وكانت الرضوض منتشـــرة

في ساقيه وذراعيه، وكانت المحاليل مُعلقة في ذراعه اليمنى.

عندما جاءت الممرضة، قلت لها: أنا ابنه الدكتور.

وقالت لي: ثواني، الدكتور سيمر.

وعندما جاءت ممرضة ثانية، قلت لها: أنا ابنه الدكتور.

وقالت: ثواني، الدكتور سيمر.

وعندما جاءت ممرضة ثالثة قالت: الدكتور بيمر.

وعندما جاء الدكتور قلت له: أنا ابنه.

وقال لي الدكتور: ربنا كبير.

51

حُجز أبي في قسم المخ والأعصاب بالدور الرابع بمستشفى الزقازيق الجامعي، كان سريره تحت الشباك وكان الشباك مغلقًا، وكانت عيناه مغلقتين، وكانت القسطرة متدلية منه ومحطوطة على الأرض، وكان على يمين الشباك طفل صغير ممدد على السرير وكان أبوه معه، وكان الولد يقول لأبيه: عاوز أروّح!

وكان أبوه يقول: إن شاء الله نروّح!

وكان رأس الولد يتحرك، وتعجز ساقاه الاثنتان عن الاستجابة للإشارة التي أرسلها رأسه، وكان الولد يقول لأبيه: أمي فين؟

وكان أبوه يقول: موجودة!

وكان الولد يقول: عاوز أروّح!

وكان أبوه يقول: إن شاء الله نروّح!

وكان على شمال الشباك رجل خمسيني، كان رأسه حليقًا، وذقنه حليقًا، وشاربه حليقًا، وكانت قطعة حديدية مغروزة في نافوخه، وكانت زوجته بيضاء وسمينة، ووجهها أحمر دم، وكان عياله الثلاثة بيضًا وسمانًا، ووجوههم بلون الدم، وكانت زوجته وعياله يتكلمون معه وعيونهم ثابتة على الحديدة المغروزة في نافوخه، وكان الرجل الخمسيني يسأل زوجته السمينة: كبيرة؟

وكانت تقول له: أبدًا.

عندما جاءت الممرضة سلمت على الولد، ثم نزعت القطعة الحديدية من نافوخ الرجل الخمسيني، وكان الجزء المختفي من الحديدة داخل رأسه أكثر مرتين من الجزء الظاهر منها، وكانت الممرضة تصب السوائل وتمسح بالقطن وتنظف الحديدة، وكان الرجل الخمسيني يسأل زوجته: كبيرة؟

وكانت المرأة وعيالها ينظرون إلى الحفرة الموجودة في دماغ الرجل.

52

خرجنا بعد شهر من مستشفى الزقازيق، وكان أبي ممددًا في العربة، وكانت عيناه مغمضتين، وكانت القسطرة قد نُزعت منه، وكان أخي يسب السائق الذي صدمه، وكان أخو أبي والأستاذ محمد عثمان يهدئانه حتى وصلنا البيت.

حين وصلنا إلى البيت، كان أبي ممددًا على السرير، وكانت عيناه مفتوحتين، وكانت نظرته موزعة علينا، وكانت أمي تشير إليَّ وتسأله: مين ده؟

وكان يبحلق فيَّ، ثم يبحلق فيَّ، ثم تنكسر نظرته عليَّ، ثم يعود ويبحلق فيَّ، ثم يبحلق فيَّ، ولا يجيب.

جاء حلمي الحلاق للسلام عليه، وجاءت زوجة حلمي الحلاق للسلام عليه، وجاء حسين السماحي للسلام عليه، وجاءت سعاد زوجة حسين السماحي للسلام عليه، ولم يعرف أبي أحدًا من الذين جاءوا للسلام عليه.

في الليل صرخ أبي، وقام على صوت صرخته الناس والشارع، وكانت أمي تضع صفيحة الماء أمامه على السرير وتمسك قضيبه، وكان يصرخ، ويصرخ، وكانت نقطة بول تقف على باب قضيبه.

وعندما جاء الدكتور وضع قسطرة في قضيبه، ثم أمرنا أن نذهب به إلى مستشفى الطوارئ بالمنصورة، ومنعني المستشفى الجامعي من مرافقته هذه الليلة.

53

دخلت مستشفى الطوارئ في الصباح، وعرفت أن أبي نقل إلى قسم الباطنة، عنبر رقم 4. وحين دخلت العنبر، كان أبي يرقد في آخر سرير فيه، كانت ذراعاه وقدماه مربوطين بحبل في السرير، وكان نائمًا، وكانت القسطرة متدلية منه. وكانت عاملة عنبر رقم 4 تقول: كان هايج بالليل.

كان اسمها "أم حسن"، وكان وجهها أبيض ومملوءًا بالتجاعيد، وكان بين كل سِنة وسِنة في فمها فراغ واضح. كانت أم حسن تصنع حقنة شرجية لنزلاء العنبر رقم 4، وكانت تخبر الممرضة بلون شخة كل نزيل، ثم ترمي شخاخ النزلاء في الحمّام، وكنت أسأل أم حسن: لماذا حُجز أبي هنا؟

كانت تقول: اسأل الممرضة.

وكنت أسأل الممرضة، وكانت تقول: اسأل الدكتور.

ثم أخذتني الممرضة وذهبنا إلى الدكتور في الغرفة الصغيرة التي في أول عنبر رقم 4، وكانت الممرضة مائلة على الباب، وكان الباب يخفي صدرها الشمال، وكان صدرها اليمين ثائرًا ومنتفضًا، وكان صدرها اليمين هو الذي يسأل الدكتور، وكان الدكتور يكلمني وعيناه الرماديتان وفمه الكبير ودماغه وتركيزه كله منصب على هذا الذي يكلمه.

عندما فتح أبي عينيه لم يعرفني، وكنت أسأله عن صحته، وعن أخباره، وكان يجيب إجابة واحدة: رص لي كرسي!

حين جاء وقت الزيارة أخذتني أمي خارج عنبر رقم 4، مشينا من عند السلالم التي بجوار عنبر رقم 4 حتى وصلنا للسلالم التي في الجهة الأخرى من الطرقة وجلسنا، فتحت أمي كيس الطعام ووضعت الملعقة أمامي وقالت لي: كُل.

كنت آكل مكرونة وفراخًا وكانت أمي تسألني: أبوك ماله؟!

وكنت أقاوم البكاء، وكنت أجد في فمي طعم المرارة، والمخاط، والمكرونة، والفراخ، وكانت أمي تسألني: أبوك ماله؟!

وكنت أجد في فمي طعم المرارة، والمخاط، والمكرونة، والفراخ. قالت لي أمي وهي تطبطب عليَّ: كُل.

قالت أمي: المكتوب مكتوب!

54

بعد المغرب، احتضر النزيل الذي على السرير الأول في العنبر، كان أسود البشرة، وكان ضخم الجثة، وكان مصابًا بفيروس "C"، وفيروس "B"، وكانت الخراطيم معلقة في ساقيه وذراعيه وأنفه وصدره، وكان الدكتور ذو العينين الرماديتين والفم الكبير يقول لأخيه: اقرأوا عليه قرآنًا.

وكان أخوه يبكي وهو يكلمني عن ابنته التي في أولى ابتدائي، وعن ابنه المولود منذ شهرين، ثم علا بكاؤه ونهنهته وهو يطلب مني أن أقرأ القرآن عليه، وجلست وقرأت سورة "تبارك" على رأسه حتى مات.

بعدما مات الشاب نزعت الممرضة الخراطيم منه، وكان الدكتور ذو العينين الرماديتين يمسك بورقة التعهد ويدفعها باتجاه أخيه، وكان أخوه يبكي وهو يدفع إليَّ ورقة التعهد، وكان مكتوبًا فيها:

أقر أنا:

رقم بطاقة شخصية:

عنوان سكني:

بأنني أخرجت أخي من المستشفى على مسئوليتي الخاصة، وأني مسئول مسئولية كاملة عنه، وأنني أتحمل وحدي أي مضاعفات تقع له، وأن إدارة المستشفى قد أخلت مسئوليتها تمامًا، وهذا إقرار مني بذلك.

المقر بما فيه

وكان أخو الميت يبكي وهو يقول: أخويا مش هيدخل المشرحة!

حين جاءت العربة التي ستحمل الميت، كان أخو الميت وأقاربه يتفقون على الكيفية التي سيجلس بها الميت في الكرسي الخلفي للعربة ليبدو لأفراد الأمن الذين على بوابة المستشفى كما لو كان حيًا!

55

بعد العشاء، جاء مريض آخر وقعد على السرير الأول وكان أصلع، وشعره وراء الصلعة أبيض ومنكوش، وكان طويلاً ونحيلاً، ورقبته بيضاء ونحيلة جدًا، وكان يكلم المرافقين ويقول لهم: عاوز سيجارة!

وكانت أم حسن تنظر إليه وتضحك، وكان المريض لا يكف عن طلب السيجارة من مرافقيه ومن نزلاء عنبر رقم 4.

جاءت الممرضة وسحبت من النزيل عينة الدم وبعثتها مع أم حسن وكانت تحثها على السرعة لإدخال النزيل غرفة العمليات، وعادت أم حسن بنتيجة التحاليل بأقصى سرعة، ودخل النزيل غرفة العمليات ومات فيها.

وسمعت أم حسن تقول للممرضة: الدكتور رمى عينة الدم في الأرض وكتب نتيجة التحاليل وادهالي وأنا واقفة!

56

فـــي آخر الليل، كان مريض يتأوه، وكان أبي نائمًا، وكان عنبر

رقم 4 مظلمًـــا، وكان النور الوحيد الموجود في العنبر عند الغرفة الصغيـــرة التي في أوله، وكانت الغرفـــة مغلقة، وكانت الممرضة تقول: في الحلال.

وكان الدكتور يقول: آه!

وكان المريض يتأوه، وكانت الممرضة تقول: في الحلال.

وكان الدكتور يقول: آه!

وكان المريض يتأوه، وكان عنبر رقم 4 مظلمًا.

57

رافقت أبي في قسم الباطنة، عنبر رقم 4 بمستشفى المنصورة الجامعي، ثلاثين يومًا، وكنت في هذه الأيام أشتري الروايات وأقرأها في المستشفى وفي وسائل المواصلات، ثم أركنها في البيت.

كانت الروايات أكوامًا أكوامًا أكوامًا، وكانت أمي تقول: يا ابني هنودي الكتب دي كلها فين؟!

وكنت أشتري الروايات وأقرأها وأكومها في البيت، كنت لا أعرف لماذا أشتري الروايات! ولا لماذا هذا الشغف بها!

وحين سافرت إلى السعودية للعمل، وضعت في حقيبة السفر شرائط كاسيت، ومجموعة روايات، كان بينها الجزء الأول من رباعية الإسكندرية "جوستين". للورانس داريل.

58

كنت أعمل في صيدلية "الوصفة"(*) بحي باب مكة بجدة، وكانت الصيدلية ملاصقة للبنك الأهلي التجاري، وكانت الصيدلية والبنك يحتلان الدور الأرضي من عمارة "بُقشان". كانت الصيدلية والبنك يتوسطان محلات تجارية معظمها يتاجر في الأعشاب والعسل، مصريون ويمنيون وباكستانيون وأفغانيون، كلهم يتاجرون بالأعشاب والعسل.

كانت هناك أعشاب لمداواة السكر، وأعشاب تُبرئ آلام الظهر، وأعشاب منقية للدم، وكانت هناك أعشاب "حق الرجال" تتوسط صفائح وبراميل العسل اليمني، والكشميري، والحضرمي، والأفغاني.

كانت بنزينة قديمة ومتهالكة في مواجهة صيدلية الوصفة، وكانت صيدلية "العمودي" بعدها، وكان يعمل بها صيدلي مصري عجوز اسمه عبد الحميد، وكان خلف البنزينة القديمة مسجد الملك

(*) كلمة خليجية دارجة تطلق على روشتة الطبيب.

عبد العزيز القديم قد هدم، ومسجد الملك عبد العزيز الجديد قيد الإنشاء، وكان محل نبيل الحلاق في مواجهة المسجد.

كان لصيدلية "الوصفة" واجهتان تُطلان على الشارع، واجهة مملوءة بشنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر، وواجهة أخرى فيها باب الصيدلية المعدني ومملوءة بهدايا ولعب وشامبوهات وبلسمات وكولونيات الأطفال. كان لكل واجهة باب حديدي يشد في المجرى، ويملأ الواجهة كلها، وكان لكل باب حديدي قفلان، وكانا نسختين متطابقتين، واحدة فيهما صناعة إيطالية، والأخرى صيني، وكنت أجرب المفاتيح الأربعة في الأقفال الأربعة كل مرة، كنت أجرب مفتاحًا بعد مفتاح بعد مفتاح، حتى أصل إلى مفتاح القفل.

وراء الباب المعدني كانت الفتحة التي أدخل منها داخل الصيدلية وأغلقها ورائي، كانت الرفوف خشبية وقديمة، ومدهونة بالأبيض، وكانت الرفوف شبه خالية من الأدوية، وكانت شهادة الترخيص الممنوحة لي من قبل وزارة الصحة السعودية ورخصة الدكان أعلى مدخل المعمل. وكنت أرتدي البالطو الأبيض لحظة وصولي، ثم أدخل إلى المعمل وأملأ البراد الأصفر بالماء من القارورة البلاستيكية الزرقاء ثم أضعه على السخان الكهربائي، ثم أحتسي مشروب الصباح، وأغسل الكوب من قارورة بلاستيكية أخرى وأضعه على الحوض بجوار البراد، ثم اخرج من المعمل وأراقب الشارع من بين

الفراغات الموجودة بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر، كنت أرى عمال البنزينة يعبئون خزانات السيارات، وكنت أرى سيارات تذهب، وسيارات تقف، وسيارات تمر يسارًا داخلة حي العمارية.

كان هناك عجوز يمني يملك سيارة مازدا حمراء قديمة، وكان يركنها في الليل أمام الصيدلية، ويشغل تسجيل قصار السور للشيخ "عبد الباسط" على علو صوته قبل أن يغادر في الصباح وكنت أشغل شرائط الكاسيت بعدما يغادر.

دخل الأستاذ شريف الباكستاني على الصيدلية وألقى السلام ثم انصرف، ودخل شركة الكتبي للمسامير والصواميل والمعدات الحديدية المواجهة لصيدلية الوصفة.

يعمل الأستاذ شريف الباكستاني في شركة الكتبي للمسامير منذ خمسة وثلاثين عامًا، كان أبوه يعمل فيها ويعمل الآن فيها، هو وأخوه وابنه. لا يملك الأستاذ شريف الباكستاني الجنسية الباكستانية، ولا الجنسية السعودية، ولا أي جنسية. ولد الأستاذ شريف الباكستاني في السعودية، وعاش عمره كله فيها، وقدم أوراقا للحصول على الجنسية السعودية. لا يعرف الأستاذ شريف اللغة الباكستانية ويتكلم لغة عربية ركيكة جدًا. يقول الأستاذ شريف إنه زار قرية أبيه في "لاهور" مرة واحدة منذ عشرة أعوام. يقول الأستاذ شريف إنه لن يعود لزيارة قرية أبيه مرة أخرى.

60

رن جرس التليفون ورفعت السماعة وقلت: ألو.. ألو!

ولم يرد أحد!

كل يوم من الساعة الثامنة وحتى الثامنة والنصف، أنتظر صوت التليفون، أرفع السماعة وأقول: ألو.. ألو!

ولا يرد أحد، فأضع السماعة وأغلق الخط.

61

قبيل أذان الظهر خلعت البالطو ورميته على الكرسي، ثم خرجت وأغلقت الباب المعدني والباب الحديدي، ودخلت في الممر الذي بين عمارة "بُقشان" والعمارة القديمة التي بجوارها، كان الممر ضيقا ومبلطًا، وكان حائط عمارة "بُقشان" جديدًا وعاليًا، وكان حائط العمارة المجاورة قديمًا وبه شبابيك عند مستوى النظر، وكنت أرى خيوط العناكب والتآكل والزمن، على الشباك، وكنت أرى الظلام ولا أسمع غير الصمت داخل الشباك.

كان المسجد في نهاية الممر، وحين مررت من على بابه لمحت

المؤذن اليمني واقفًا عند المنبر القصير، وكان تحته ثلاثة عواجيز بينهم إمام المسجد، كان إمام المسجد يتكلم وكان صوته عاليًا ووجهه غضوبًا، وكان المؤذن لا يتكلم وكان وجهه غاضبًا.

جاوزت باب المسجد ودخلت الحمَّام، كانت الطرقة الطويلة تفضي إلى باب خشبي مغلق بقفل قديم، وكان خمسة عشر حمامًا على اليسار، واثنتا عشرة حنفية تعمل على اليمين، كنت أدخل الحمَّام قبل الأخير، وكان محبس الحنفية داخل الحمَّام أحمر ويتحرك يمينًا ويسارًا، وتيار الماء الذي ينزل من الحنفية شديدًا.

سمعت صوت مياه كثيرة ترتطم بالأرض وأنا جالس على الحجرين العاليين، فكرت في الوجهين الغاضبين وأنا جالس على الحجرين العاليين، وسمعت صوت اثنين باكستانيين يتكلمان وأنا جالس على الحجرين العاليين، وكان المؤذن قد بدأ في رفع الأذان.

حين قضيت حاجتي، دفعت خرطوم الماء ذي التيار الشديد تجاه قضيبي، ثم دعكته دعكتين، ثم حركت محبس الحنفية وهدأت سرعة تيار الماء ثم دعكته دعكتين، ثم انتصبت ونفضت قضيبي نفضتين كي أخرج آخر قطرة بول، ثم أخذت غرفة من الخرطوم ووضعتها على قضيبي وضغطت عليه، كنت أضع الماء الطاهر فيتوقف بزوغ البول النجس، ثم تبزغ نقطة أخرى من البول النجس، فأضع تيار الماء الطاهر كي يتوقف بزوغ تيار الماء النجس، فعلت

ذلك مرارًا دون نتيجة، كنت مضطربًا، وكان الماء قد تساقط بكثافة على البنطلون، وكان المؤذن يرفع الأذان في الميكروفون، وكانت أصوات الباكستانيين واليمنيين والمصريين والأفغانيين وخبطهم يطالبني بالسرعة.

وضعت غرفة ماء أخيرة على قضيبي ثم رفعت اللباس والبنطلون وربطت الحزام.

توضأت وصليت وغادرت المسجد، ثم وقفت على بابه، كنت أبحث عن شبشبي وسط كومة كبيرة من الشباشب والجزم، عثرت على الفردة اليمنى ولبستها، ثم اجتزت عتبة المسجد، وكنت أرتدي الفردة اليمنى وقدمي اليسرى عارية وواقفة على شباشب المصلين، وكانت عيناي تبحثان عن فردة الشبشب اليسرى، تنحيت جانبًا كي أفسح الطريق للناس المغادرة للمسجد وتريد أن تلبس شباشبها، وكانت الأقدام العارية تتوالى خارجة والأقدام التي ترتدي الشباشب والجزم مغادرة، وكنت أفتش بعينيّ عن فردة الشبشب اليسرى، وحين قل كُوم الشباشب وجدت فردة شبشبي اليسرى مقلوبة تحت العتبة مباشرة.

مضيت في الممر الضيق، وكنت أرى الشبابيك القديمة التي في مستوى النظر للعمارة المجاورة لعمارة "بُقشان"، وكنت أرى السيارات تتهادى داخلة إلى البنزينة القديمة، وكنت أفكر في الوجهين

الغاضبين، وحين وصلت إلى الباب، كان نبيل الحلاق صاحب محل الحلاقة الذي يتوسط محلات العسل ينتظرني عند الباب الحديدي المغلق.

فتحت القفل الإيطالي بالمفتاح الثالث، ودفعت الباب الحديدي أنا ونبيل الحلاق لينكمش وينزوي في أقصى اليسار، ثم فتحت الباب الداخلي ودخلت ودخل ورائي نبيل الحلاق، وقبل أن ألتفت لنبيل الحلاق سمعته يقول: الحقني يا دكتور.. الحقني يا دكتور.

62

التفت نبيل الحلاق يمينًا ويسارًا قبل أن يضع المفتاح في باب مسكنه الذي يقع خلف المحل، كنت أقف قبيل الباب وصوت التكييف المنخفض يدوي في أذنيّ.

دخلت من باب المسكن وكان حوش صغير وراء الباب، وكانت غرفة وحمَّام على اليمين، ثم خرج سيد كبدة من الغرفة التي على اليسار واتجه للحمَّام.

كان سيد كبدة يرتدي عباءته البنية أم "نُص كم" التي لا يغيرها، وكان وجهه أحمر وصلعته حمراء وملتهبة، وكان نمش بني كبير يرعى في وجهه الأحمر وصلعته الحمراء، قال لي سيد كبدة وهو

متجه إلى الحمَّام: صباح الخير يا دكتور.

ثم رفع سيد كبدة العباءة ودخل الحمَّام، ودخلت أنا ونبيل الحلاق الغرفة المجاورة.

كانت رائحة كريهة تعبق بالمكان، وكانت قطع قماش ملوثة بالدم مبعثرة في الغرفة، وكانت امرأة ممددة تحت التكييف وغائبة عن الوعي، وكان عجوز مصري يجلس مربعًا على الأرض بجوارها، وكانت امرأة إندونيسية تقف قريبة من المرأة الممددة على السرير.

كان اسم المرأة الإندونيسية كريمة، وكان لها أنف كبير وعريض وشفاهها كبيرة، وكانت ترمي النقاب فوق رأسها. وقال نبيل الحلاق وهو يقدمها: ممرضة.

اقتربت الممرضة مني وقالت: الدم ينزل، الدم ينزل.

ثم نظرت الممرضة إلى قطع القماش الملوثة بالدم، ثم نظرت إلى أمبولات "ceftriaxone" وعلبة "cyclokapron"، ثم نظرت إلى المرأة الممددة على السرير وهي تقول: إيش أسوي!

وكان العجوز المصري يجلس على الأرض وينظر إليَّ وهو ساكت.

عندما خرجنا من الغرفة كان سيد كبدة واقفًا في الحوش، كان يرتدي عباءته البنية أم نص كم، وكانت جبهته وصلعته الحمراء

تلمع في الشمس، وكان يحمل في كل يد كيسًا بلاستيكيًّا ينزف الدم منه.

قال لي سيد كبدة: أنا قلت له يا دكتور.

قال سيد كبدة لنبيل الحلاق: أنا قلت لك يا حاج نبيل.

ثم انصرف وهو يحمل كيسي الكبدة، وانصرفت وراءه عائدًا إلى الصيدلية.

63

حين عدت للصيدلية، ارتديت البالطو وقعدت على الكرسي وفردت شرائط الكاسيت المحطوطة بجوار الكاسيت الأحمر المحطوط وسط علب البنادول ولزقات الجروح، كانت معي شرائط كاسيت لشفيقة، وعبد الباسط حمودة، وأحمد عدوية، والتونسي الغمراوي، كنت أحب الأغاني الشعبية. وكان معي أيضًا شرائط كاسيت لنجاة وفايزة أحمد وفيروز وصباح، وكان معي شريط كاسيت لفريد الأطرش وكنت أحب شريط فريد، كان تسجيلًا لحفل أحياه فريد في اليمن، وكانت أبيات القصيدة التي غناها فريد في اليمن مكتوبة بالأبيض على الشريط الأسود من الخارج، وكنت أحفظ أبيات القصيدة كاملة عن ظهر قلب.

كنت أحفظ الأماكن التي يطالب اليمنيون فيها فريد بالإعادة، والأماكن التي يتنحنح فريد بها، والمكان الذي يتوقف فيه فريد عن الغناء ويحيّي مصر، وشعب مصر، والرئيس جمال عبد الناصر.

كنت أستمع إلى أغنية "عش أنت" لفريد حين دخل إمام المسجد الصيدلية، أغلقت الكاسيت وقمت ورحبت بالإمام، قال لي الإمام: سلام عليكم.

ثم طلب شريط "diamicron" حق السكر، وأعطاني ثمنه، ثم قال: سلام عليكم.

واتجه نحو الباب، ثم رجع ناحيتي وسألني: تعرف - الله يعزك - كيف الأولون عرفوا السكري؟

قال الإمام اليمني: كان فيه واحد بال، والنمل اتجمع على بوله.

وقال الإمام: النمل بيعرف السكر.

حين انصرف إمام المسجد دخل المؤذن، كان واقفًا بجانبه على الكونتر وكانت عيناه على الباب وهو يسألني: إيش كان يقول لك الشيبة؟

قلت: الشيبة مين؟

قال: هذا الشيبة! إمام المسجد.

ثم أشار المؤذن ناحية الممر الضيق وهو لا يزال واقفًا بجانبه على الكونتر، ثم قال: إمام المسجد الشيبة.

ثم قال المؤذن: هذا عجوز خرفان!

بعدما انصرف المؤذن اليمني دُست على زر الترجيع في جهاز الكاسيت وأدرت الجهاز مرة أخرى، كنت أشتهي أن أسمع حبة الموسيقى التي ألفها فريد في مطلع أغنية "عش أنت"، هذا النواح المتواصل من عود فريد الأطرش، هذا النواح المتواصل من الآلات الموسيقية الأخرى وهي ترد على عود فريد الأطرش، هذه الدخلة التي ألفها فريد مرثية حزينة لإنسان تعيس.

64

عندما أتت الساعة الثانية والنصف، أغلقت جهاز الكاسيت، وخلعت البالطو ورميته على السرير، وأغلقت الباب الحديدي بالأقفال الأربعة، ثم غادرت الصيدلية. كانت الشمس حارقة والرطوبة عالية، وكان الشارع خاليًا من السيارات المتحركة، وكان مسجد الملك عبد العزيز الجديد قيد الإنشاء عن يميني والعمل قد توقف فيه.

صعدت السلالم العالية لمطعم "مشوار" المقابل للباب الرئيسي لمسجد الملك عبد العزيز قيد الإنشاء، استقبلني أبو رامي من على

الباب، كان ضخم الجثة وودودًا وطاهيًا ماهرًا، قال أبو رامي وهو يشير إلى ترابيزة فارغة: اتفضل يادكتور.

وقال أبو رامي لمساعده: يا حسين، كوباية عصير وطبق شوربة هنا قدام الدكتور.

دخل سيد كبدة مطعم "مشوار" وهو يمسك بكيس في يده وكان الدم ينزف من الكيس، وضع سيد كبدة الكيس على الأرض وجلس على الترابيزة المحاذية لي. قال سيد كبدة وهو يشرب الشوربة بصوت عالٍ: والله ياما نصحته يا دكتور، قلت له يا حاج نبيل وعدت له يا حاج نبيل.. أني غلطان؟!

نظر سيد كبدة إلى أبو رامي الواقف منتصبًا على الجريل، وقال وفمه منفوخ بالأكل: أنا غلطان يا أبو رامي؟

وكان أبو رامي يبتسم إليه ولا يتكلم.

كنت لا أعرف اسم أبو رامي، لا أنا سألته ولا هو قال، كان جيرانه وزبائنه ومعارفه وعماله ينادونه: أبو رامي.

وكنت أناديه مثلهم.

ثم هز أبو رامي رأسه وهو واقف على الجريل وقال لسيد كبدة: ابلع يا سيد الأول!

رنت ملعقة سيد كبدة على الترابيزة، ثم قام وحمل كيس الكبدة

وغادر، وكان أبو رامي يقول له: الشمس شديدة، شمس موت، وشك اتحرق.

ورد سيد كبدة: شمس مين؟ إحنا ما بيهمناش يا أبو رامي!

بعد قليل دخلت الدبابة مطعم "مشوار"، كانت خمسينية ومؤخرتها كبيرة وصدرها ضئيل جدًّا، وكان نبيل الحلاق قد قال لي اسمها لكنني نسيته، كان يحكي لي عنها، وقلت له إنها تشبه الدبابة فضحك، ووجدت حي العمارية كله يسميها بهذا الاسم.

كانت الدبابة تأتي إلى السعودية كل سنة برجل جديد، وكان الرجل الجديد في كل سنة زوجًا لها، وكانت الدبابة في كل سنة تستأجر سكنًا جديدًا مع زوجها الجديد بحي العمارية، قالت الدبابة لأبو رامي: هات طبق محشي.

كان أبو رامي يرص صوابع المحشي بالطول وبالعرض داخل الطبق الأبيض، ثم لف أبو رامي الطبق الأبيض المملوء بالمحشي بالفويل ووضعه في كيس وقدمه للدبابة، ثم ترك أبو رامي مكانه على الجريل وجاء نحوي وكان يشير لي على مؤخرة الدبابة وهي تغادر المطعم.

جلس أبو رامي بجواري وأعطاني سيجارة، ثم وضع سيجارة في فمه، ثم رفع أبو رامي البنطلون وقال وهو ينظر إلى ساقه: رجلي!

قال أبو رامي: رجلي!

وكنت أرى الحفر السوداء المتقيحة التي أكلت لحم رجل ابو رامي وغارت فيها، وكنت أرى الأوردة الخضراء المنفوخة والملتوية، وكنت أرى السواد الذي حول الكعبين وفوقها.

كان أبو رامي يكشف على ساقه فيكتب له الدكتور جرعة مضادات حيوية مضاعفة، ويقول له: ريح.

وكنت أعطي لأبو رامي إبر المضادات الحيوية فيهدأ الالتهاب، وكان أبو رامي لا يستريح، فتعاود الساق الالتهاب من جديد.

يقول أبو رامي إن أم رامي قالت له: انزل اعمل عملية!

لكن أبو رامي لم ينزل! لا يرفض أبو رامي إجراء العملية، ولا يرفض النزول، يريد أبو رامي أن ينتظر حتى يحصل رامي على دبلوم الصنايع، ثم يأخذ تأجيل من الجيش وسيبعث له فيزا!!

يقول أبو رامي: رامي ييجي من هنا، وأنا أمشي من هنا، ما أرجعش تاني.

قلت لأبو رامي: ربنا يجيبه بالسلامة ويرجعك بالسلامة.

ثم وضعت السيجارة في الطفاية وضغطت عليها.

65

كنت أسكن بيتًا خلف مطعم "مشوار"، وكان البيت قديما ومتهالكا، وكان مدخله ضيقًا ومنخفضًا وسلالمه ضيقة جدًّا، وكان السقف في الدور الأخير من البيت بعيدًا جدًّا، كان نصف الدور الأخير بلا بناية، وكان مملوءًا بمخلفات حديدية، وورقية وأسمنتية، وكان النصف الثاني مكونًا من ثلاث غرف: غرفة في مواجهة الباب مباشرة، وغرفتين داخليتين في مقابل بعضهما، وكان الحمّام خلف الغرفة الداخلية التي على اليسار.

كان السقف في الغرف الثلاث بعيدًا جدًّا، وكان الحمّام بلا سقف، وكنا نضع فيه برميلا كبيرًا لتخزين الماء، وكانت البلكونة التي تطل على مسجد الملك عبد العزيز قيد الإنشاء مملوءة ببراميل كثيرة لتخزين الماء.

كان راضي الشربيني يسكن الغرفة المقابلة لي، وكان محمد المنوفي يسكن الغرفة المواجهة لباب الشقة، ولم يكن أي منهما موجودًا في هذا التوقيت.

دخلت غرفتي وغيرت ملابسي، وأغلقت الغرفة ورفعت مفتاح تشغيل التكييف ودوى صوت الجهاز زاعقًا، ثم بدأ الجو يبرد داخل الغرفة، ثم ظبطت منبه الوقت في الموبايل ونمت.

66

رن الموبايل في الثالثة والنصـــف وأجلت ميعاد التنبيه ونمت، ورن مرة أخرى وأجلت ميعاد التنبيه ونمت، ورن مرة ثالثة وأجلت ميعاد التنبيه.

صحوت في الرابعة وارتديت ملابسي وأغلقت جهاز التكييف والغرفة ثم غسلت وجهي ورأسي بالماء الموجود في البرميل الكبير المحطوط في الحمّام، ثم هبطت - مسرعًا - السلم الضيق للبيت القديم المتهالك.

67

كانت ساعة الغداء قد انتهت، وكانت السيارات المتحركة تملأ الشارع في الاتجاهين، وكنت أهرول بجوار محلات العسل والأعشاب لأتفادى الزحام، وحين وصلت الصيدلية كنت مضطربًا، وكنت قد جربت المفاتيح الأربعة ولم يفتح القفل الإيطالي ولا القفل الصيني.

جربت المفاتيح الأربعة مرة أخرى، وفتحت الباب الحديدي، وسمعت صوت التليفون يرن، ففتحت الباب المعدني وجريت على التليفون ورفعت السماعة وقلت: ألو.. ألو!

ولم يرد أحد. وضعت السماعة وخرجت لأفتح الباب الحديدي الآخر وجربت المفاتيح الأربعة ولم يفتح القفل.

كنت متأكدًا أن هذا المفتاح هو مفتاح القفل الصيني، وكنت أضع المفتاح داخل القفل الصيني وكنت مصممًا على فتحه، وكان القفل مغلقًا، وسمعت صوت التليفون يرن داخل الصيدلية، فتركت المفاتيح كلها معلقة بالقفل الصيني ودخلت الصيدلية، ورفعت السماعة وقلت: ألو.. ألو!

ولم يرد.أحد!

لبست البالطو وخرجت من الصيدلية، وفتحت الباب الحديدي الآخر، ورميته بعنف وقوة، لينكمش وينزوي في أقصى اليمين.

68

حين دخلت الصيدلية وضعت شريط موايل لأحمد عدوية داخل الكاسيت وضغطت على زر التشغيل، في صوت عدوية خيط واحد لا يفارقه: يغني موالًا فتجد الخيط موجودًا، يغني عن مأساة "زحمة يا دنيا زحمة" فتجد الخيط موجودًا، يعاتب أحبته "ما تاخدوناش في دوكة" فتجد الخيط موجودًا، ويدعو لمريضة "سلامتها أم حسن"

فتجد الخيط موجودًا، في السراء والضراء البهجة لا تغادر صوت عدوية.

كنت قد هدأت وانسجمت مع صوت عدوية، حين دخلت الصيدلية امرأة ترتدي عباءة سوداء وترتدي النقاب، كانت يدها بيضاء وأظافرها قصيرة جدًا، وقالت: بطني تعورني.

وضعت المرأة يدها تحت سرتها بقليل، كانت تريد تحديد مكان الألم، وكانت يدها تتحرك تحت سرتها وفوق سرتها حتى استقرت تحت صدرها وهي تحاول العثور على مكان الألم، ناولت المرأة "zantac" قالت لي: أخذته.

ناولتها "dusptalin" قالت لي: أخذته.

ناولتها "controloc" قالت لي: أخذته.

قلت لها وقد تعبت: حُطي إيدك على مكان الألم!

وتحركت يدها تحت السرة وفوق السرة، وعلى الصدر وتحت الصدر، ثم وضعت يدي على يدها المتحركة وقلت: هنا؟

وتحركت يدها، وتحركت يدي وراء يدها، وتركت يدي يدها وأمسكت نهدها الأيسر، وقلت: وهنا؟!

فضحكت.

كان اسمها مليكة، وكانت مريضة بالقولون، وكانت قد أخذت كل أدوية القولون ولم تفلح معها، ثم أخذت مليكة شريط "mebeverin" وقالت: هاكله.

ثم غادرت الصيدلية.

كنت أراقب مليكة من بين الفراغات الموجودة بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر وهي تعبر الطريق، كانت قدمها بيضاء بياضًا شاهقًا، وكنت أرى الرجال تنظر إلى مؤخرتها وقدمها البيضاء وهي تدخل سوق البدو.

جلست على الكرسي، وأخرجت شريط عدوية من الكاسيت ووضعت شريط التونسي الغمراوي(*)، كان التونسي يغني:

مش هاقولك كل حاجة

إنت عارف كل حاجة

هو لازم يعني أقولك

ما انت عارف كل حاجة

فيه ناس ما كانتش حاجة

عملت كل حاجة

واحنا يا أصحاب الحاجة

(*) مطرب شعبي.

ضيعنا كل حاجة

وتعرف أحلى حاجة

ما حدش فاهم حاجة

مش هاقولك

مش هاقولك

ما انت فاهم كل حاجة

بعدما عادت مليكة من سوق البدو قلت لها: وريني وجهك.

قالت: والله ما أوريك.

ثم غادرت مليكة الصيدلية وهي تضحك.

69

اشـــتريت علبة سجائر ميريت أبيض وصعدتُ إلى السكن، كان محمد المنوفي وراضي الشـــربيني يجلســـان فـــي الممر الذي بين الغرف الثلاث، ويتفرجان على برنامج "توك شـــو"، وكانت علبة مطبخ "حضر موت" فارغة أمام محمد المنوفي، وكانت علبة جبن عليها جزء من رغيف العيش أمام راضي الشربيني. ألقيت السلام عليهما، وقال راضي: اقعد اتعشى.

كان الشربيني يلبس بنطلونًا أبيض خفيفًا وفلنة بحمالات بيضاء، وكان المنوفي يرتدي برمودا وفلنة بحمالات ملونة، وكنت أجلس بينهما، ووجهي كان مواجهًا للتليفزيون والسطوح، لمحت بقعا حمراء على أكتاف المنوفي وسألته عنها وقال: حساسية.

وقلت: شكلها تنيا.

وقال محمد: أنا نازل أتجوز!

وقال الشربيني: ادعكها بفص توم.

وقال المنوفي وهو يهرش فيها: بتاكلني!

ثم انشغلنا نحن الثلاثة ببرنامج التوك شو، كانت معاهدة كامب ديفيد موضوع النقاش، وكان النقاش محتدًا بين الضيفين، وكانت المذيعة تحاول المحافظة على درجة السخونة بين الضيفين، وقال الشربيني: إسرائيل قالت مش مهم الدبابة ولا الطيارة ولا المدفع، المهم العسكري المصري.

نظر الشربيني إلى المنوفي ورفع يده والسيجارة بين أصابعه، ثم نظر إليَّ، وزاد ارتفاع يده والسيجارة بين أصابعه وقال: المصري ادمر تمامًا!

أشعلت سيجارة من علبتي الميريت، وأشعل المنوفي سيجارة من علبته المارلبورو الحمراء، وكان الشربيني لا يتوقف عن إشعال

سجائره الهندية الرخيصة، وكان الضيفان في برنامج التوك شو متأهبين تمامًا لدخول الحرب بسبب رأيهما المختلف حول معاهدة السلام، واضطرت المذيعة للخروج إلى فاصل إعلاني.

70

أمضى راضي الشربيني سنتين في سلاح الحدود، بالتحديد في الشريط الحدودي الفاصل بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي. بعد خروجه من الجيش سافر إلى لبنان والعراق والأردن، ثم جاء إلى السعودية. وعمل مُحضِّرًا للدواء بمؤسسة توزيع أدوية.

كان يأكل جبنًا وخبزًا في الفطار، ثم يشرب شايًا، وجبنًا وخبزًا وبصلًا في الغداء، ثم يشرب شايًا، وجبنًا وخبزًا في العشاء، ثم يشرب شايًا، وكان لا يتوقف عن إشعال سجائره الهندية التي سعرها ثلاثة ريالات.

كان راضي يمشي ثلاثة كيلومترات في الصباح، من تحت البيت حتى مؤسسة توزيع الدواء التي يعمل بها، وكان يمشي ثلاثة كيلومترات في طريق العودة، وكان وهو في طريق الذهاب إلى عمله أو في طريق العودة لا يتوقف عن إشعال سجائره الهندية، وكان يدور بعينيه في كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة، وما إن

يجد أي شيء ملقى على الأرض حتى يجري عليه ويفحصه: كرة قديمة، عجلة قديمة، جهاز كهربائي قديم، ملابس قديمة، سجادة قديمة. كان راضي يجمع هذه الأشياء القديمة ويشحنها إلى أسرته في مصر.

وكان محمد المنوفي قد حصل على بكالوريوس التجارة وأعفي من الخدمة العسكرية وجاء إلى السعودية، وعمل محاسبًا بإحدى المؤسسات العقارية، كان قد خطب وهو في السعودية، وكتب عليها وهو هنا في السعودية، وسينزل بعد شهور ليدخل عليها.

لم يعد الضيفان للظهور مجددًا على الشاشة، كان الفاصل الإعلاني قد انتهى والبرنامج قد انتهى، فقمت من بينهما وأغلقت الباب ورائي وبحثت عن رواية "جوستين"، وقرأت.

71

أنهيت الجزء الأول من رباعية الإسكندرية "جوستين" في أسبوع، فهمت أن المكان بطل يعصر شخصياته ويعجنهم ويجعلهم ملائمين له.

كنت أفكر في "جوستين" وأنا جالس في الصيدلية حين دخلت مليكة فجأة. وضعت حقيبتها على الكونتر الزجاجي، وقالت إن

بطنها يعورها، وكنت أمسك صدرها الأيسر بيميني، وكنت أمسك صدرها الأيمن بيميني، وكنت أراقب باب الصيدلية من بين الفراغات الموجودة بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر وأسألها عن مكان الألم. كانت تتأوه، وكنت أقول لها: ...

وكانت تقول لي: إيش تقول؟

وكنت أقول لها: ...

وكانت تنظر إليّ وتضحك.

رفعت مليكة النقاب فجأة، كانت تضع روج أحمر غامقًا وخدودها مطلية بالأحمر، وكانت تنظر إليّ وتضحك.

كانت مليكة تشتكي من قولونها، كانت تقول إنها عندما ترجع إلى بلدها تزول آلام القولون من غير دواء، تقول مليكة إن الألم يرجع حين تعود إلى هنا، ثم طلبت مليكة شريط "mebeverin" جديدًا وانصرفت.

عدت لـ"جوستين" بعد أن تركتني مليكة وحيدًا وخاويًا. لم أندم، لماذا أندم؟! قبيل صلاة الظهر أغلقت الصيدلية ودخلت الحمّام قبل الأخير واغتسلت.

72

بدأت آلام القولون في الظهور منذ هذا اليوم، كنت قد أحضرت تميسًا وجلابة من مطعم "البركة" الذي في سوق باب مكة، وأكلتهما في الصيدلية، ثم اشتعلت النار في معدتي، وكانت أمعائي تتقطع، وكان الألم ينتقل من تحت السرة إلى فوقها ومن تحت الصدر إلى فوقه.

أكلت زبادي "المراعي" وشربت "موسى"، وانتظرت أن تنطفئ النار، لكن الوقت مر وكنت لا أزال أشعر بالنار في معدتي وأمعائي تتقطع.

أخذت قرصين "zantac"، وقرص "dusptalin"، دون أن يؤدي ذلك إلى تحسن كبير، أدركت أنه المكان، وكنت اخاف المكان ومرعوبًا منه.

حين وصلت السكن، كان نور غرفة محمد المنوفي مضاءً، وكان الشربيني يتابع برنامج التوك شو ويدخن سجائره الهندية، وكان قد مد العلبة نحوي وقال: خد ولع.

وقلت: بطني بتوجعني.

أخذت قرصين "zantac" وقرص "dusptalin" آخرين ونمت، صحوت قلقًا وكان الصمت يحتل العالم ولا أثر لكائن، لا صياح

ديكة، ولا نهيق حمار، ولا هوهوة كلب، لم يكن سوانا نحن الثلاثة، أنا والليل والصمت، وكنت أسمعه، كنت أسمع النداء يزعق داخلي، نفس النداء الذي صرخ فيّ حين سمعت حكاية أمي، نفس النداء الذي صرخ فيّ ومحمود وردة يقرأ عليّ التمثيلية التي يريد أن نمثلها ونحن جالسون بره في الشارع على المصطبة، نفس النداء الذي زعق فيّ وأنا أقرأ رواية "السراب"، نفس النداء الذي زعق في النملة لتتجه إلى بول الأولين!

ولأول مرة أريد شيئًا بكل هذه القوة وبكل هذا الحماس، ذهبت إلى المكتب مرغمًا، ودخلت المدرسة مرغمًا، خرست ولم أرد على أمينة المكتبة مرغمًا، دخلت الثانوية مرغمًا، ودخلت الصيدلة مرغمًا، ولا أعرف لماذا أرغمت على كل ذلك؟!

لكني أريد ذلك الآن! لأول مرة أريد شيئًا بكل هذه القوة وبكل هذا الحماس، وإن كنت لا أعرف لماذا! أتقلب على اليمين، وأتقلب على اليسار، أمدد على ظهري، وعلى بطني، وأجد نفسي للمرة الأولى أريد شيئًا بكل هذه القوة وبكل هذا الحماس!

نهضت من على السرير وأشعلت المصباح، وأمسكت ورقة وقلمًا وكتبت:

"ما الذي يعطي للمكان سره وبقاءه، فيبقى فينا ويرحل معنا ويجعلنا دائمًا نحِن إليه، ونتغرب ونتغير وتبقى أدق ذرات المكان

عالقةً بنا لا يمحوها ماء الأرض، يتحد الإنسان بالمكان، فلا نعجب حين يطل علينا الإنسان يحمل تضاريس المكان، وحين يطل علينا المكان يحمل وجوه البشر".

وقلت إنني سأسمي الرواية الأولى "الجميزة".

73

دخل نبيل الحلاق الصيدلية بوجه غير الذي ودعته عليه، كان شعر رأسه وشاربه مصبوغين بالأسود، وكان يتكلم كالعادة من بين شفايفه فقط، قال نبيل الحلاق: تمام.

قال نبيل الحلاق: خلاص.

قال نبيل الحلاق إنه نقل المرأة اليمنية إلى شقة العجوز المصري وزوجته الإندونيسية كريمة، قال حلمي الحلاق إن كريمة الإندونيسية هربت من شقة زوجها العجوز المصري بعد أن سرقت الخمسمائة ريال التي أعطاها له، قال حلمي الحلاق إن العجوز المصري تزوج المرأة اليمنية. قعد حلمي الحلاق على الكرسي البلاستيكي الأخضر، وكان الكونتر يفصل بيني وبينه وهو يحكي حكاية المرأة اليمنية.

74

يقول نبيل الحلاق إن صديقًا له من نبروة يعمل في قصر الأمير بندر هو الذي عرفه على اليمنية، كان زوجها اليمني يعمل بقصر الأمير بندر ومرض ليومين ثم مات، وكانت أرملته لا تريد العودة إلى اليمن، ولا تعرف في جدة غير قصر الأمير بندر، فدخلت على الأمير وطلبت منه البقاء.

يقول نبيل الحلاق إن صديقه السائق بالقصر تقرب من المرأة اليمنية، يقول نبيل الحلاق إن بلدياته جاء له قبلًا بفلبينيات وإندونيسيات ومصريات، كلهن قطع علاقته بهن وإنه حافظ على الأرملة اليمنية.

كانت الأرملة اليمنية تأتي باب مكة فجر الجمعة، وتغادر والإمام لا يزال واقفًا على المنبر. يقول نبيل الحلاق: كنت أسألها في كل مرة عن الوسيلة.

وكانت تقول: أخذتها.

يقول نبيل الحلاق: حبلت رغم أنني كنت أسألها عن الوسيلة، وكانت تقول: أخذتها!

رن جوال نبيل الحلاق فأخرجه من سيالة الجلابية المكوية بعناية، وضع التليفون على أذنه وقال: أيوه يا حبيبي.

قال: أنا واقف مع الدكتور.

قال نبيل الحلاق: إنت عارف نبيل حبيبك، أصحابه دكاترة، ووزراء.

أعاد نبيل الحلاق الجوال إلى جيبه ودعك أنفه وشاربه المصبوغ دعكتين، ثم قال: هالة حبيبتي.

قال نبيل الحلاق وهو يمسك الباب المعدني ويلتفت إليّ: عليها جوز عيون يا دكتور!

75

كنت أفكر في القولون ومليكة، وكنت أفكر في رواية "الجميزة" حين لمحت من بين فراغات شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر، محمد البنغالي عامل البنك الأهلي وهو يرمي بكراتين الورق داخل صندوق الزبالة، كانت الأوراق تظهر لي قبل سقوطها في صندوق الزبالة، كانت ملونة، كانت حمراء وصفراء وزرقاء وبيضاء.

خرجت للبنغالي، وقلت له وهو يتابع عملية التخلص من الأوراق بحماس: إيش هذا يا محمد؟!

قال البنغالي: سلام عليكم، كيف الحال دكتور؟

ثم استمرت عملية التخلص من أوراق البنك.

حين رآني البنغالي راكعًا على كرتونة أوراق، قال لي: تبغاها؟

نظرت إليه وسكت، ثم حملت كرتونة أوراق كاملة ودخلت الصيدلية، أخرجت رزمة الورق الكبيرة من الكرتونة، وجزأته، وقطعت الأطراف الطولية المخرمة ورميتها، كان للورق ثلاثة ألوان، وضعت الورق الأحمر في الكرتونة وركنته في المعمل، أما الورق الأزرق والورق الأبيض فقد قسمته إلى أجزاء ودبست كل جزء بدباسة الصيدلية، كانت الدباسة صغيرة جدًا، وكنت أحاول أن أدبس بها أكبر جزء من الأوراق، وكانت لا تدبس غير أقل جزء من الأوراق، وضعت الأوراق الزرقاء المدبسة تحت الأوراق البيضاء المدبسة وبحثت عن قلم لأكتب، أمسكت القلم الأزرق ورميته، وأمسكت القلم الأسود ورميته، وبحثت بعينيّ في الريون عن قلم آخر.

أغلقت باب الصيدلية وذهبت إلى المكتبة، كان صاحب المكتبة يمنيًا وكان صديقًا للدكتور عبد الحميد الذي يعمل في صيدلية "العمودي"، كان قصيرًا وشعره أبيض وشاربه أبيض، ولم أدخل عليه إلا وجدته واقفًا ومشغولًا بعمل ما، اشتريت قلمًا أحمر وجريدة الأهرام، وعدت إلى الصيدلية من الممر الضيق الذي يفصل بين عمارة "بُقشان" والعمارة المتهالكة، كتبت اسم الرواية في منتصف الورقة الأولى،

وكتبت تحت اسم الرواية اسمي، ثم كتبت في الورقة الثانية المقطع الذي كنت قد كتبته في الليل، ثم توقفت، ورميت القلم الأحمر والأوراق ولم أستطع أن أكمل.

فتحت جريدة الأهرام من الوراء كما أفعل في كل مرة، قرأت صفحة الوفيات، كنت مغرمًا بقراءة صفحة الوفيات، تشدني أسماء الموتى وأسماء عائلاتهم، أجد توافقًا كبيرًا بين أسماء الموتى وصورهم، قرأت نعي رجل اسمه "زلطة"، كان رأسه أملس ومدببًا في أعلاه، وقرأت نعي الأستاذ "محمود حسن مستكة" المدير السابق بوزارة الأوقاف، وقرأت نعي الأستاذة "فتحية حسن رشيد"، وقرأت نعي المعلق الرياضي "يحيى السيد الجعار"، وقرأت نعي السيدة "وردة حسن سليم".

أحب في صفحة الوفيات نعي الأقباط، هؤلاء الأقباط مهووسون بنعي موتاهم، مهووسون بشكل النعي، بصورة المتنيح، عريس السماء صاحب الوجه الفتي والسوالف الهائلة، أبو كلّ من، وعم كلّ من، وخال كلّ من، وجد كلّ من، لماذا يصر الأقباط على نعي موتاهم بصور من الماضي؟! بالتحديد من الشباب؟ لأن عيسى صلب شابًا؟!

كنت معجبًا بآية "**لِيَ اشْتِهَاءً أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا**"، فلما قرأت آية "**وضعت يدي على فمي وسكت لأنك**

يا رب فعلت" أعجبت بها أكثر، إنها معبرة عن الصلب أو الموت على حد سواء.

قلبت أوراق جريدة الأهرام، ووجدت إعلانًا عن مسابقة للرواية، في أقصى يمين الصفحة الثقافية، لمعت في ذهني هذه الجملة في آخر الإعلان: "سيُراعى النظر إلى التجديد والتطوير في الكتابة".

دققت في آخر موعد لتسليم الرواية، وحفظت آخر موعد لتقديم الأوراق، كان 13 ديسمبر 2008م، رميت الجريدة، وقمت واقفًا من على الكرسي ورحت وجئت في الصيدلية، وعيني على الورق الأبيض المدبس، بالتحديد على الاسم المكتوب بخط كبير في منتصف الورقة.

دخلت الدبابة وسألتني عن وسيلة لمنع الحمل، أعطيتها علبة "gynera"، وانصرفت وهي تقول: مش عاوز حاجة من نبيل؟

وكنت غير مشغول بنبيل، كنت أروح وأجيء في المكان وأنا أفكر في المسابقة والرواية، التطوير والتجديد في الكتابة، لكن هل أعرف الكتابة حتى أعرف التطوير والتجديد فيها؟

انتبهت من غفلتي لأجد محمد البنغالي عامل البنك الأهلي واقفًا على الكونتر، كان يضع رزمة أوراق بيضاء جديدة تمامًا على الكونتر، وكانت دباسة كبيرة بجوارها، وكان ينظر إليَّ وهو مستغرب. قال محمد البنغالي: ورق جديد! دباسة جديدة!

قال محمد البنغالي وقد محيت من وجهه علامات الاستغراب وابتسم: أوامر، إيشي؟

76

دخل راضي الشربيني عليَّ الصيدلية، كان يرتدي عباءة وبنطلونًا داخليًا أبيض، ويمسك كرة قديمة في يده، جلس على الكرسي البلاستيكي الأخضر، وقال وهو يدير الكرة في يديه: لقيتها عند ميدان البيعة.

كنت واقفًا على الكونتر، وكان راضي يفتش في الكرة، مدها نحوي وهو يقول: الخُرم.

قال راضي: الخُرم كبير!

قال راضي إنه رجع من العمل قبل المغرب، ووجد الماء موجودًا في المواسير، فملأ البرميل الذي في الحمَّام، والبراميل التي في البلكونة. أعاد راضي تدوير الكرة في يده ووقفت يده وعيناه على الخرم، ثم قال: يبقى يحط فيها كرة بلاستيك!

دخلت امرأتان الصيدلية، كانت إحداهما طويلة والأخرى قصيرة، وكان للاثنتين نفس نبرة الصوت، ونفس لون العينين ونفس تعبيراتهما،

كان للطويلة جسد قوي ومشدود، وكان جسد القصيرة يفتقر لهذه الصفة، وكانت الاثنتان تشكوان نفس الشكوى، ألم تحت السرة وفوقها حتى الصدر، وسألهما الشربيني: كلتوا إيه؟

قالتا: محشي!

وضحكت الطويلة، وضحكت القصيرة وراءها، وقال الشربيني: المحشي يفجر ميت قولون!

أعطيتهما علبة دواء للقولون وانصرفتا، وقال الشربيني: المرأة الطويلة في مجدها!

وقال الشربيني: نفسي في طبق محشي!

ثم غادر الصيدلية.

عدت للكتابة بعدما انصرف راضي الشربيني، كنت قد سميت الرواية "الجميزة"، وكنت لا أعرف من أين أبدأ، وكانت أمامي بدايتان: الأولى من الماضي الذي لم أره، والثانية من الماضي الذي رأيته، الأولى من الواقع، والثانية من الواقع، الأولى يبدأ زمنها حين هجمت دلال الحبشية على عمدة الكَفر محفوظ وهو تحت الجميزة ورشقت السكين في قلبه، والثانية يبدأ زمنها حين نزلنا من العربة أنا ومحمود وردة وسط الظلام عند الجميزة.

لكني لم أعرف من أين أبدأ! فجأة، وجدت فصل خامسة أول

بمدرسة الكَفر الابتدائية المشتركة رقم 2 يلمع في ذهني. كنت جالسًا على الدكة الأخيرة وكانت شيماء تمرح في الفصل وحدها، وقررت أن تكون شيماء بطلة القصة.

في الواقع، كان مستوى تحصيل شيماء الدراسي جيدًا، دخلت شيماء الثانوية العامة ونجحت في السنة الأولى والسنة الثانية، ووصلت الثانوية العامة ودخلت القسم العلمي. في الواقع، لم تدخل شيماء الجامعة، جاءها عريس من بلدة بعيدة، وكان يعمل في بلاد أبعد، ويملك بيتًا مستقلًا يسكن فيه شهرًا واحدًا في السنة ثم يغلقه ويذهب إلى البلاد البعيدة التي يعمل بها. في الواقع، تزوجت شيماء ولم تدخل الجامعة ولم أرها أبدًا بعد ذلك.

في "الجميزة" لم تكمل شيماء شهرًا مع زوجها وطلقت، أعادها العريس إلى أبيها بشنطة هدومها وأغلق البيت وسافر إلى البلاد البعيدة التي يعمل بها. وفي الواقع، عادت شيماء إلى الكَفر.

في "الجميزة" لم تنجب شيماء. في الواقع، أنجبت شيماء. في "الجميزة" أصبحت شيماء بطلة الحكاية التي صنعتها هند بنت الحاج حسين السماحي حين صعدنا إلى سطوح بيتهم ونمنا على المرتبة، في "الجميزة" دخلت شيماء كلية الآداب قسم الفلسفة وأحبت الشعر والقصة والرواية. في "الجميزة" كتبت أنا وشيماء رواية واحدة عن نفس الفكرة، كل فصل كُتب بلغتين، لغتي ولغة شيماء، أسلوبي

وأسلوب شيماء. في "الجميزة" أكملنا الرواية بهذه الطريقة وطبعناها ونشرناها. في الواقع، شيماء لم تكن تحب الشعر، ولم تكتب القصة، ولا الرواية، وتعيش مع زوجها وأولادها في البلاد البعيدة وليست مهتمة بكل ذلك.

في الواقع، أرسلت رواية "الجميزة" التي يبلغ عدد أوراقها سبعين ورقة فلوسكاب مكتوبة بقلم حبر أحمر إلى المسابقة الثقافية التي كنت قد قرأت عنها في جريدة الأهرام.

77

حين ظهرت نتيجة المسابقة حزنت، نجحت في الكُتاب مرغمًا، ونجحت في المدرسة مرغمًا، ونجحت في الصيدلة مرغمًا، وهذه المرة الأولى التي أريد فيها أن أنجح.

جاء راضي الشربيني إلى الصيدلية وجاء أبو رامي إلى الصيدلية، وجاء نبيل الحلاق إلى الصيدلية، وجاء محمد المنوفي، ليأخذ علاجًا للتنيا وقالوا لي: مالك؟

وقلت: ما فيش!

كنت أقول لنفسي وأنا أضع شريط عدوية في الكاسيت وأدوس

على زر التشغيل: هذا الموضوع يخصني وحدي، فشلي فيه يخصني وحدي، ونجاحي فيه يخصني وحدي، والموضوع كله يخصني وحدي!

وكنت أغني مع عدوية:

شبكها بالستاير

ومزينة عنابية

وقفص ترتر وحاير

بيفكرني بحكاية

حكاية قلب حب والشوق حكم عليه

بنظرة عين يطب ولا حد يحس بيه

خرجت وأشعلت سيجارة أمام الصيدلية، ودخلت وعدت أردد مع عدوية:

عملولها زار لطشها

وكأنه عيار دوشها

ويا ريت كان

ودست على زر الإيقاف، وغنيت لوحدي دون صوت عدوية:

ويا ريت ما حد حاشها

معذورة أم حسن

78

حين دخل نبيل الحلاق كان معه امرأة منتقبة، نظر الحلاق إليها ثم نظر إليَّ بزهو وقال لها: الدكتور.

ونظر إليها مرة أخرى بإعجاب وقال لي: هالة حبيبتي.

كانت هالة تشتكي من ألم الرقبة، ومن آلام عظم جسمها كله، قالت هالة إنها كانت تأخذ أدوية في مصر ونسيتها هناك، قالت هالة إنها نسيت أسماء الأدوية.

كانت هالة تتكلم بهدوء وثقة، وكان حاجباها رفيعين، وعيناها رماديتين، ووجهها أبيض ورائقًا ولا يعكر صفوه غير التجاعيد التي غزته. كانت هالة في الماضي أميرة في حكاية، أو أحلى بنت في الكَفر، أو جميلة الشارع والحارة.

أخرجت هالة الموبايل من حقيبة يدها واتصلت بأحد، وقالت: الدكتور معاك، مليه الأسامي.

قالت هالة وهي تأخذ مني الموبايل: سمر بنتي.

وقالت: في المعهد العالي للتكنولوجيا.

وقالت أيضًا: مع السلامة.

كنت أفكر في هالة بعدما عاد نبيل الحلاق وحده. قال الحلاق إن لها سبع أخوات بنات، كان شرط والدها الوحيد في العريس المتقدم أن يكون حشاشًا!

يقول أبو هالة: الراجل لما يكون حشاش يصرف على بنتي.

يقول نبيل الحلاق: هالة عندها عمارة في شارع العشرين بفيصل!

يقسم نبيل الحلاق إن الدور الأرضي بالعمارة مسجد!

79

كنت أجلس في مطعم "مشوار"، وكان أمامي على الترابيزة الأرز والبسلة والشوربة واللحم والعصير، وضع حسين مساعد أبو رامي طبق المحشي وعليه ربع فرخة أمامي، كنت أنظر إلى حسين مستغربًا حتى سمعت أبو رامي يقول: حلاوة رامي، خد الإعفاء.

ترك أبو رامي الجريل لحسين وجاء وجلس بجانبي، كان منتشيًا، وكان وجهه منيرًا كمصباح، وكان يقول إنه قريبًا سيرسل الفيزا

إلى رامي. كشف أبو رامي عن ساقه وهو يقول: رجلي خفت.

كان أبو رامي يشير بإصبعه الطويلة جدًّا والتخينة جدًّا إلى البثور المتقيحة ويقول: من غير مضادات ولا دواء!

قال أبو رامي بعدما أخرج دخان سيجارته: أنا كنت عاوز أحج وأنزل، بس لو لقيت الفيزا قبل الحج هانزل.

تركت أبو رامي غارقًا في فرحته وصعدت الغرفة، وكانت آلام القولون قد بدأت، فأخذت قرص "digestin" ومددت على السرير. كنت أفكر في هالة، وكنت أفكر في ابنتها، وأحاول أن أتذكر في أي الفرق قالت لي هالة، هل هي جميلة كأمها؟ هل هي أميرة حكاية الآن؟

كنت أفكر في هالة، ماذا لو لامس الإنسان شيئًا كان جميلًا في الماضي؟ حين قابلت نبيل الحلاق في الفترة المسائية سألته عن هالة، وقال لي بفرحة: أدق عليها تكون عندك!

80

كانت ليلة خميس، وجاء راضي الشربيني يحمل عجلة متهالكة، وجلس على الكرسي الأخضر وراء الكونتر، وفتش في العجلة،

كان يمسك بالإطار المعدني ويضغط بيده على الكوتش، كان يجرب الجادون ويدفع العجلة للإمام ثم يسحبها للخلف، قال إنه سيرسلها لابنه الصغير محمد، وقلت: دي قديمة!

دخل نبيل الحلاق علينا ووجده جالسًا، ونظر إليه ثم نظر إليّ، ثم أمسك مقدمة رأسه واشتكى من الصداع، واشتكى من الضغط والسكر، ثم غمز لي بعينيه وانصرف، بعد ذلك كلمني على الجوال وقال: هالة وصلت.

وكان الشربيني لا يزال يفحص العجلة القديمة التي سيرسلها إلى ابنه الصغير، وكنت أتلهى عنه بالكتابة أو بدخول المعمل، وكان هو جالسًا على الكرسي ويفتش في العجلة.

دخل رجل نحيل وأصفر الشعر والبشرة وطلب دواء "mebeverin"، تابع الرجل الأصفر الشربيني وهو يحرك العجلة للأمام وللخلف ثم ابتسم، وقال له الشربيني: تشتري؟

قال الرجل الأصفر: ما في أولاد.

بعدما أعطيت الرجل علبة الـ"mebeverine" لمحت مليكة تنتظر خارج الصيدلية، ثم سارت بجواره ودخلا حي العمارية.

81

أغلقت الصيدلية بالأقفال الأربعة، واشتريت علبة سجائر ميريت بيضاء، واتجهت إلى سكن نبيل الحلاق، كان نبيل فرحًا ومنتشيًا، وكنت قلقًا، وكنت أفكر في هالة، ماذا لو لامس الإنسان شيئًا كان جميلًا في الماضي؟

كان سيد كبدة يقف في حوش السكن، وكان قريبًا من الحمَّام، وكانت يداه فارغتين من الأكياس، وكان صوت امرأة يأتي من وراء الباب ويقول: عاوز إيه يا سيد؟!

وكان صوت الماء يخبط مرتطمًا بأرضية الحمَّام، وكان صوت المرأة يقول: معاك ميت ريال يا سيد؟

وكان سيد كبدة ساكتًا، ثم دخل سيد كبدة غرفته وترك بابها وراءه مفتوحًا، ودخلت وراء الحلاق الغرفة التي بجوار الحمَّام، ووضع نبيل الشنط ثم انصرف وأغلق الباب علينا، كانت هالة مشعلة سيجارة، كان صوت التليفزيون هادئًا، وكانت هالة ترتدي بنطلونًا قطنيًّا أسود وفلنة حمراء ذات حلقات بيضاء حول كتفيها ورقبتها، كان نحرها بائنًا، ورأيت الماضي كله، رأيت الزمن الذي مر ساكنًا هناك!

جلست بجوار السرير، وأشعلت سيجارة، ونظرت إلى التليفزيون،

وكنت أفكر في الصوت الذي تستحم صاحبته في الحمَّام وفي الزمن الذي مر على نحر هالة.

جلست هالة بجواري وفردت ساقيها، ثم وضعت واحدة على الأخرى، كنت أرى بطنها الناتئ المترهل، وكنت أرى التجعيدات الصغيرة والكبيرة في الوجه، وعندما ابتسمت وهي تكلمني رأيت نابها الفضي للمرة الأولى. قالت لي هالة وهي تضع يدها عليَّ: ساكت ليه؟!

كنت أحس بخريف الزمن في لحمها ونحرها ونابها، وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتي وأطلقته في قوة، ونظرت إلى التليفزيون، كان حسن الأسمر يغني:

متشكرين على الألم وعلى الجراح

متشكرين على اللي عدى واللي راح

بُكرة تبكوا يا اللي خنتوا

والزمان بيني وبينكم.

وكنت أفكر في هذا الزمن.

نهضت هالة واقفة، وشدتني من ذراعي، ثم تركتني وبدأت تتمايل مع الأغنية، خلعت الفلنة الحمراء وتمايلت، كانت حركتها بطيئة ونهدها ضامرًا، والتجعيدات التي في جنب البطن تُرى وهي

واقفة، كانت ربما أطول في الماضي وبنيانها أشد تماسكًا وحلاوة، لكن الزمن كان يضغط بقوته التي لا هروب منها عليها الآن، كنت أراها كبنيان تداعى في بطء تحت مرور الزمن.

سلتت هالة جسدها من البنطلون القطني الأسود ورمته أسفل التكييف مباشرة، وكنت أرى ساقها ولحمه، وكنت أرى ذراعها ولحمه، وكنت أرى صدرها ولحمه، لا شيء يكشف الزمن مثل جسد امرأة عجوز، لا الساعات تكشفه ولا الليل ولا النهار ولا الأيام ولا الثواني، إنه يتسلل متخفيًا تحت ستار هذه المسميات، لا شيء يكشف الزمن مثل جسد امرأة عجوز.

دخلت الدبابة وهي تدعك شعرها بالفوطة، كانت ساقها ضخمة جدًا ووسطها ونهداها لا يناسبون هذه الضخامة. ارتدت الدبابة قميص نوم وجلست على الأرض، وكانت أغنية حسن الأسمر قد انتهت والفاصل الإعلاني شغال وقالت الدبابة لهالة: شفت الوسخ؟!

قالت هالة: مين؟

قالت الدبابة: سيد بتاع الكبدة الوسخ، عاوز يدخل عليَّ الحمَّام!

كانت هالة تجلس بجواري وهي تسمع من الدبابة ما فعله سيد كبدة، وكنت أسحب أنفاس سجائري في نهم وأدفعها بقوة وباضطراب، وفجأة وجدت أبو رامي يدخل علينا الغرفة، وطى رأسه وهو يدخل من باب الغرفة، وبانت قدمه المريضة وهو يعبر العتبة، كان يحمل

أكياسًا بلاستيكية في يده، وكنت أشم رائحة الطعام. قال أبو رامي وهو يجلس: ناكل لقمة الأول.

ثم رص المحشي والأرز والمكرونة وأطباق الشوربة البلاستيكية والملاعق البلاستيكية والفراخ واللحم على السفرة السفاري.

لم يكن أبو رامي أكولًا، كان يشعل خمس سجائر على الريق مع كوبين شاي، ثم يأكل نصف رغيف بأي غموس، ويظل طول اليوم يلحم سيجارة من سيجارة دون أكل. كان أبو رامي فرحًا وكان يأكل بنهم، كان يأكل اللحم ويقول للدبابة: أنا هاكل وأجيلك!

وكانت الدبابة قد أخذت ثلاثة أطباق من المحشي أمامها، وكانت الأطباق الثلاثة مكشوفة أمامها، وكانت الدبابة تأكل من الأطباق الثلاثة، وتقول لأبو رامي: وأنا هاكل المحشي وأروح!

وكانت هالة تمد لي صُباع المحشي وتضعه في فمي، كانت تمسك طرف صُباع المحشي بأسنانها وتقرب الطرف الآخر من فمي، وكنت أرى نابها الفضي ولا أجد للشيء الذي كان جميلًا في الماضي أي أثر!

بعدما أكلنا وشربنا، قال أبو رامي: أنا تعبت.

وقالت له الدبابة: طب اقلع هدومك.

قال أبو رامي وهو يخلع القميص والفلنة: البنطلون لأ.

قال أبو رامي: رجلي.

كان بطن أبو رامي كبيرًا جدًّا، وعريضًا جدًّا، ولا توجد شعرة واحدة في جسده.

وكنت، أنا وهالة، ممددين على السرير الذي تحت التكييف، حين دخل أبو رامي بين صاريتي الدبابة، كان بنطلونه ساقطًا من عند وسطه ومدلدلًا ويغطي قدمه كلها، وكانت هالة ممددة على السرير ونائمة على صدري، وكان الفاصل الإعلاني مستمرًّا، وكان أن فتح سيد كبدة الباب وصرخ: مش عاوزين كبدة.

ثم أغلق الباب.

وقمت واقتربت من الأميرة القديمة وأحلى بنت في الشارع والحارة في الماضي، ولم أجد أي أثر للشيء الذي كان جميلًا في الماضي، فقط وجدته عصر اللحم وهرسه، وعصر العظم وهرسه، وجدته يسد الطريق ويزعق من نابها الفضي، قالت لي هالة: مالك؟!

وقلت لها: احكي لي عن الزمن.

قالت بأسى: متشكرين على الألم وعلى الجراح، متشكرين على اللي عدى واللي راح.

وكنت أنصت لها وهي تغني أغنية حسن الأسمر، وكنت أسمع لهاث أبو رامي المتلاحق. وفجأة، سمعت صوت صرخة هائلة، ثم دوى صوت صراخ متواصل.

كان أبو رامي قد سقط كلية فوق الدبابة، وكانت ذراعاه مفرودتين على جانبيه كمغرفتين هائلتين، وكان بنطلونه مدلدلًا ويغطي قدمه المصابة كلها، وكان سيد كبدة يقف على عتبة الباب، وكانت الدبابة تصرخ وتحاول أن تزيح أبو رامي من فوقها.

أمسك سيد كبدة بصدر الدبابة وهو يحاول معي ومع هالة أن نزيح أبو رامي من فوقها، وأمسك به ثانية، وثالثة، وصرخت الدبابة قائلة: إحنا في إيه وانت في إيه يا ابن الكلب؟!

وكنت أرى صلعة سيد كبدة الملتهبة وأرى النمش السارح فيها، وكنت أرى ثديي هالة المتدليين، وأرى الزمن.

لما لم نقدر على زحزحة أبو رامي سحبنا الدبابة من تحته، وكان سيد كبدة يمسك كل ما تطاله يداه من جسد الدبابة وهو يقول: هب هُب، هيلة، هُب.

وكانت الدبابة تبكي وتصرخ وتقول: يا ابن الكلب! يا ابن الكلب!

كان نبيل الحلاق قد وصل، وكان سيد كبدة قد اختفى، وكانت الدبابة تبكي وتنوح، وكانت هالة تبكي، وكان أبو رامي ميتًا.

كان ملقى على ظهره وذراعاه مفرودتان على جانبيه كمغرفتين هائلتين، وكان جسده كله بلا شعرة واحدة، وعلى باب قضيبه الأسود كانت تقف نقطة مني بيضاء.

82

كانت هالة قد انصرفت، وكانت الدبابة قد انصرفت، وكان سيد كبدة قد انصرف، وكنت أنا ونبيل الحلاق قد غسلنا قضيب أبو رامي بقطعة قماش مبللة وأزلنا نقط المني البيضاء، وكنا قد ألبسناه ملابسه التي جاء بها وأسندناه للحائط، ولممنا بواقي الأكل والشراب ورميناهم، وكان نبيل الحلاق يتصل بصديقه السائق في قصر الأمير بندر، كان نبيل يقول: بسرعة.

وبعد أن أغلق الجوال اتفقنا على كل شيء.

83

حين جاء السائق ألقى نظرة على أبو رامي، ثم ألقى نظرة على نبيل الحلاق، ثم ألقى نظرة عليَّ، وقال: ريحة نسوان في الموضوع يا نبيل!

وردّ نبيل ونحن نحاول رفع أبو رامي: شيل معانا خلينا نلحق الراجل.

في السيارة التي يملكها الأمير بندر، قال نبيل: الدكتور صاحبي، حكيت لك عليه.

وقال السائق وهو يلتفت للوراء وينظر لأبو رامي: ريحة نسوان يا نبيل يا حلاق!

وقال نبيل له: خليك في الطريق!

84

في مكتب الشرطة قال لي الضابط: ما أبغاك تفوت كلمة، قول يا مصري.

وقلت إن نبيل الحلاق اتصل بي وطلب أن آتي لأرى صديقه الذي أغمي عليه، كنت أسمع النبض جيدًا، وكان لا يزال حيًا ونحن لا نزال في سكن نبيل وحين وصلنا مستوصف باب مكة 2000، قالوا يا طويل العمر إنه مات.

سألني الضابط: هذا كل إيشي؟

قلت: هذا كل شيء.

85

بتُّ في الحجز، وكان نبيل الحلاق معي، وكان أبو رامي في

مشرحة مستشفى الملك عبد العزيز لمعرفة سبب الوفاة، وكان نبيل الحلاق يصرخ: فُك ضيقتنا يا رب!

وكنت أفكر في الصيدلية، وفي زملائي في الشركة، وفي الكَفر، وكان نبيل الحلاق يصرخ: فُك ضيقتنا يا رب!

دخل العجوز المصري الحجز ومعه ثلاثة رجال مصريين، قال العجوز إن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داهمت مسكنه الأسبوع الماضي، كان هو وزوجته اليمنية وثلاثة من أصدقائه، لما لم يجدوا دليلًا أخذوه إلى مبنى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعطوه شرائط دينية ومصحفًا، ثم داهمت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سكن العجوز اليوم، وجدوه ومعه ثلاثة من أصدقائه وزوجته اليمنية، فأخذوهم وجاءوا بهم إلى هنا.

تنحى نبيل الحلاق والعجوز المصري جانبًا، وكنت أفكر في الصيدلية وفي زملائي، وفي الناس، وفي الكَفر، وفي مكالمة الصباح اليومية، وأسمع نبيل الحلاق يحكي للعجوز المصري وللثلاثة الذين ضبطتهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده في السكن، كل ما اتفقنا عليه بشأن ميتة أبو رامي:

"كان أبو رامي منتشيًا بعدما اتصل رامي به وأخبره أنه كشف على الفيزا في وزارة الخارجية ويسعى الآن لاستكمال أوراق السفر، وكان نبيل يتناول غداءه في مطعم "مشوار" حين اتصل رامي بأبيه،

وتواعدا على السهر عنده هذه الليلة.

كان جايب محشي وكان جايب شوربة وكان جايب مكرونة وكان جايب فراخ محمرة ولحمة محمرة، كان فرحًا، وكان يأكل بيديه ورجليه، وكنت أقول له: كفاية! وكان يأكل بيديه ورجليه. بعدما أكل، شرب لتر بيبسي، ولتر سفن، ولتر ميرندا، ثم اشتكى أبو رامي من نغزة هنا في جنبه الشمال، ثم اشتكى من نغزة هنا في جنبه اليمين، ثم وضع يده على قلبه واشتكى من النغزة.

خرجت أبحث عن صيدلية، كانت الصيدليات قد أغلقت، فاتصلت بالدكتور على الفور".

يقول نبيل: الراجل كتر خيره.

نظر إليَّ العجوز المصري والثلاثة الذين ضبطتهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده في السكن، وقالوا لي: خير.

وكان نبيل الحلاق يقول: فكُ ضيقتنا يا رب!

وكنت ساكتًا لا أتكلم.

نمت ساعة واحدة، جالسًا على مقعدتي ورأسي بين ساقي وذراعي، صحوت وجسدي متشوق إلى الاغتسال، وروحي متعلقة بشعاع الصبح الضئيل الذي تسرب إلى غرفة الحجز عبر النافذة.

كان خروج المحجوزين والتحقيق معهم يتوالى، وكنت أنا ونبيل

الحلاق ننتظر تقرير مشرحة مستشفى الملك عبد العزيز لمعرفة سبب الوفاة.

في الثامنة والنصف سمعت صوت التليفون يدوي في أذني، وقلت: ألو.. ألو! لكن جرس التليفون لم يتوقف.

عندما دخل أحد الحراس قال الحلاق: فُك ضيقتنا يا رب!

وقال الحارس: ما أبغي أسمع صوتك يا مصري!

وحاول الحلاق الكلام مرة أخرى، لكن الحارس السعودي صرخ فيه: اقفل فمك يا مصري!

86

خرجنا بعدما جاء التقرير، ومشيت أنا ونبيل الحلاق من عند مكتب الشرطة حتى باب مكة.

كنت أسير بجوار سور مقابر "الأسد"، وأتأمل بوابة باب مكة الأثرية، والحافلات الزرقاء والحمراء والسوداء الواقفة فيها ومتأهبة للتفرق، وكان الحلاق يكلم هالة في الجوال.

حين دخلنا سوق العسل، كانت الصيدلية مغلقة والواجهتان الحديديتان مغلقتين بالأقفال الأربعة، وكان الناس يسألوننا عما حدث، وكنا

نقول لهم ما اتفقنا عليه أنا ونبيل الحلاق حين كانت جثة أبو رامي ثالثتنا في الغرفة.

وحين وصلت مطعم "مشوار"، وجدت حسين مساعد أبو رامي يجلس على أولى درجات السلم، كان يبكي وذراعاه متهاويتان ومتلاصقتان عند قدميه، وكان الجوال يتحرك من كف إلى أخرى، وكنت أقول له: اتصلت بمراته؟

فقال وهو يبكي: مش قادر!

87

كان حسين أسود وقصيرًا، ويتحرك جسده كله بالعرض وراء ساقه اليمنى، ثم يتحرك جسده كله بالعرض وراء ساقه اليسرى، كان حسين يشبه البط وهو خارج من مصرف عزبة العفريتة، وكان ابن عم زوجة أبو رامي، وكان قد أخذ إعفاء من الجيش بسبب مشية البطة، وجاء إلى السعودية وأقام مع أبو رامي وعمل في مطعم "مشوار".

كان لا يحمل هوية للإقامة في المملكة.

كان حسين يغسل الحلل ويضعها على البوتاجاز، ويغسل

الأطباق والملاعق ويرصها على الجريل، وكان يقدم الطلبات للأكلين، وكان يذهب إلى سوق الخضار في باب مكة ليلًا، كان يشتري بواقي السوق من على عربات الباعة اليمنيين ويعود إلى مطعم "مشوار" وهو يحمل بواقي الخضار والبطاطس والطماطم والليمون، ويمشي مشية البطة.

وكان أبو رامي يهز رأسه ناحيته ويقول: عاوزين نجوزه.

وكان حسين يبتسم لي ويقول لأبو رامي: انسَ!

كان حسين يبكي الآن وهو لا يعرف ماذا يفعل بعد أن خلا مطعم "مشوار"، وباب مكة، والسعودية كلها من أبو رامي. قلت له: هتعمل إيه؟

فقال وهو يبكي: مش عارف!

تشجع حسين في النهاية، وقف وتمشى أمام باب المطعم، وكان الجوال على أذنه، لم يفتح حسين فمه بكلمة، كان الجوال على أذنه وكان يقاوم نوبة بكاء، وقبل أن تقتحمه قال: البقاء لله، أبو رامي مات!

ثم هزمته نوبة البكاء فأذعن لها، كان نائمًا على ظهره، وكان جسده كله يرتج، وكانت ذراعاه وساقاه مفرودتين على آخرهما، وكان الموبايل ملقى بجوار كفه المفتوحة.

وكان يجعر ويقول: آه! آه!

88

كنا حوالي عشرين رجلًا نهرول وراء عربة الإسعاف، وكان أبو رامي يرقد داخلها، وكانت الرطوبة عالية، وكان حسين يمشي مشية البطة، ويضع يده على عربة الإسعاف وينهنه. قالوا: نروح مقابر الأسد.

وقال نبيل الحلاق: مقيمين لأ.

وكان حسين يضع يده على عربة الإسعاف من الوراء ويمشي مشية البطة وينهنه.

حين وصلنا مقابر الأسد قال المسئولون عنها: المقيمون يدفنوا في الرويس.

تحركنا بالعربات وراء عربة الإسعاف وقلت لحسين: ارجع.

وكان يبكي وينهنه ويصر على عدم ترك أبو رامي.

وصلنا مقابر الرويس ودخلنا من بابها الكبير، ومررنا بين جدارين أسمنتيين، كان بينهما مكان الغسل وأدواته، وكانت الأرض بعد مكان الغسل منبسطة ولا نهائية، ولم تكن هناك شواهد للقبور، كانت حجارة

موضوعة عند رؤوس الموتى، وكان نتوء في الأرض فوق كل جسد، وكانت ممرات لمشي الأحياء بين تلك الحجارة وهذه النتوءات.

كانت الأرض مملوءة بحفر كثيرة بعد الحجارة، واختار العاملون بالمقابر حفرة مناسبة لأبو رامي وأنزلوه فيها، ثم أهالوا عليه التراب، وتكوَّن نتوء جديد في الأرض، ووضع حجر جديد عند رأس أبو رامي، ولم يكن هناك شاهد.

كنت أرفع كفيَّ للدعاء وأدعو وراء عامل المقابر، وكانت الشمس حارقة والرطوبة عالية، وكنت أنظر بين كفيَّ وأؤمن وراء عامل المقابر، وكنت أسمع صوت بكاء حسين ونهنهته.

خارج المقابر كنت ألح على حسين أن يأتي معنا إلى باب مكة، وقال لي حسين: مش هاسيبه.

قال حسين: أرجع أعمل إيه؟!

كنا نشُد فيه كلنا ليتزحزح خطوة عن الباب الكبير، وكان حسين مكلبشًا فيه، كان يشب ويصرخ من أعلى الباب: يا أبو رامي! يا أبو رامي!

وكانت الدنيا كلها هس وراء بوابة مقابر الرويس.

حين وصلت الصيدلية سمعت التليفون يرن، فرفعت السماعة وقلت: ألو.. ألو!

ولم يرد أحد.

قلبت في شرائط الكاسيت كلها ولم أشغل أي واحد منها، انهرت على الكرسي وقد اقتحمتني نوبة بكاء قاهرة.

89

دخلت عليَّ مليكة وأنا أبكي، نظرت إليَّ من وراء النقاب الأسود، ثم رفعت النقاب الأسود ووضعت الحقيبة على الكونتر وسألتني: مالك؟

مسحت دموعي بيدي ولم أتكلم.

أخرجت مليكة مجموعة أدوية من حقيبتها وقالت: إيش فيهم حق القولون؟

بقيت قابعًا مكاني على الكرسي. أمسكت مليكة دواء ودواء، وكانت تقول: هذا ولَّا هذا؟

ثم فردت ذراعها كله وهي تقول: إيش فيك إنت؟ ما أنت دكتور؟!

قمت متثاقلًا، وأخذت أدوية القولون وقدمتها عن الأدوية الأخرى ثم عدت لأجلس على الكرسي، وكانت مليكة تسألني: مالك؟!

وبكيت وأنا أقول: ما فيش!

كانت مليكة تلح عليَّ في السؤال، وكنت أنظر إلى الفراغات التي بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر وأبكي.

لم أتوقف عن البكاء بعد انصراف مليكة، كنت أتذكر جسد أبو رامي وهو عريان ونحن ندعك قضيبه بالقماش المبلول، ونحن نقلبه ونلبسه ملابسه، كنت أتذكر منظر ساقه المتقيحة والملتهبة ونحن ندخلها في البنطلون، وأبكي لتفاهة الإنسان وهوانه. كنت أفكر في حسين وإلى أين ذهب، وكنت أفكر في رامي وإلى أين سيذهب.

كان أبو رامي يقول لحسين: تقف جنب ابن أختك نفس الوقفة.

وكان حسين يرد: هتوصيني على ابني.

وكان حسين ينادي عليَّ: يا دكتور يا دكتور.. قل له يطلع منها.

وكنا نضحك أنا وحسين.

أما أبو رامي فقد محيت كل صوره من ذاكرتي، ولم يعد لوجهه غير التعبير الأبله الذي كساه وهو ميت، الموت في كل وقت نذل، تريده فيتلكع، ولا تريده فيأتي، الموت لصٌّ متخفٍّ، ليس له أسوار وجدران وممرات وبنايات كالمكان، وليس له أسماء يتسلل عبرها كالزمن، الموت صاعقة تنزل، ولا يعرف أحد من أين! ثم تختفي، ولا يعرف أحد إلى أين!

90

في السكن كان محمد المنوفي يأكل من محل المندي الشهير، كان يملأ الملعقة عن آخرها ويمد بوزه كي لا يقع الأرز البسمتي على الأرض، وكانت بقع التنيا قد اختفت، وكان الشربيني يجلس وأمامه علبة الجبن والخبز اللبناني، وكان الضيوف يتكلمون في برنامج التوك شو عن معاهدة السلام.

كانوا أهدأ من الحلقة الماضية، وكانت المذيعة تذكرهما بالاتفاق المسبق، وكان الشربيني يصرخ: الإنسان.. إسرائيل قالت مشكلتنا في الإنسان المصري.

كان الضيف يعدد ما كسبته مصر بمعاهدة السلام، وكان يثني على الرئيس السادات، وكان راضي يردد كلمات الضيف بصوت السادات وتعبيرات وجهه ويديه، وقبل أن يحتد النقاش خرجت المذيعة إلى فاصل إعلاني، ورن جوال محمد المنوفي وخرج إلى السطح.

وهو يتكلم في الجوال، كانت ثلاثة أيام تفصله عن النزول والدخول على خطيبته، وكانا يستعدان لبعضهما، كان يكلمها على الهدايا والملابس الداخلية التى أحضرها لها، وكان يذكرها بخصوص تأجيل الدورة الشهرية، كان يذكرها بالإجازة التي لن تتعدى شهرًا، وكانت تقول له: عملت حسابي.

حين أنهى المنوفي المكالمة مع خطيبته وعاد نصحه راضي: ما تسيبش المرة فاضية وتيجي!

خرجت المذيعة وحدها بعد الفاصل الإعلاني وأعلنت انتهاء حلقة اليوم من برنامجها، وقمنا نحن أيضًا للنوم. بعد قليل خبط المنوفي على باب غرفتي وعلى باب غرفة راضي، وكان يصرخ وهو يشير إلى غرفته ويقول: فار! فار!

91

حين دخلنا غرفة المنوفي كان صوت التكييف يدوي، وحين فتح المنوفي الشباك كان حي العمارية كله بائنًا على مد البصر، كانت مبانيه وشوارعه كلها تشبه ماضيًا يجب التخلص منه وسحقه، وكان محمد المنوفي ينظر في كل اتجاه ومرعوبًا من ظهور الفأر، وكان يقول: باقي ساعات بس!

وكنت أنا أيضًا أخاف الفئران، كان الشربيني بالسروال الأبيض والفلنة يفتش تحت السرير ووراء الثلاجة وداخل حقائب الهدايا التي اشتراها محمد المنوفي لخطيبته. قلب راضي الحقائب كلها، ورأينا أقمصة العروس وسونتياناتها، والقطع الحميمة، والبارفانات

وأدوات زينتها، وأقراص حق الرجال، وبخاخات لتأخير القذف، ونقطًا لإثارة شهوة العروس.

حين لم تسفر محاولات الشربيني عن أي نتائج، أعاد الملابس الداخلية في الحقائب وأغلقها ووضعها تحت السرير، ورفض المنوفي النوم في غرفته.

دخل المنوفي غرفة الشربيني ودخلت غرفتي، كنت خائفًا ومرعوبًا وسمعي مرهف لدرجة أني أسمع أقل خرفشة، وكانت إصبع قدمي اليمنى الكبيرة منملة وكنت أحركها من وقت لآخر لأتأكد أن الفأر لم يصل إليها. من يوم أن حكى لي "مرة تف مرة نف" ونحن نجمع القطن، عن خاله الذي أكل الفأر إصبع قدمه اليمنى كلها وهو نائم وأنا مرعوب من الفئران.

خرجت من غرفتي ودخلت غرفة راضي ونمت معهما. كان راضي نائمًا على السرير، وكنت أنا والمنوفي نفترش الأرض، وكان المنوفي يكلم خطيبته في الجوال، حين انقلب راضي فجأة في فراشه وقال: ما تسيبش المرة فاضية وتيجي!

ومن يومها شاركت الشربيني غرفته.

92

كانت قد جاءت إلى الصيدلية، وكانت قد دخلت الصيدلية، وكان أن خلعت في الصيدلية، وكان على سروالها ورود بحجم العالم، وكان أسفل العالم سيقان بيضاء ناعمة، وكان فوق العالم فوق العالم، وكان لمسه طريًا، وكان شعره نابتًا، وكانت أنفاس مليكة تقتحمني كريح عاصفة.

وكنت قد ذهبت وراءها، وكنت قد دخلت وراءها، وكنت قد أغلقت وراءها، وكان على سروالها ورود بحجم العالم، وكان أسفل العالم ورود بحجم العالم، وكان فوق العالم ورود بحجم العالم، وكان ريحه هنيًا، وكان لمسه طريًا، وكانت أنفاس مليكة تقتحمني كريح عاصفة.

وكانت مليكة مصرة على أن تحكي لي حكاية "تفاح الحباري"(*).

قالت مليكة كانت هناك امرأة عاقر، كانت هناك امرأة عاقر، ثم وقفت، ورفعت العالم وقالت:

"كان حتى كان، كان الحبق والسوسن في حجر النبي العدنان عليه الصلاة والسلام، حكايتنا اليوم يا أهل المكان عن امرأة من نسوان زمان، كانت شابة، لكن كانت محرومة من العيال، يعني

(*) حكاية تراثية مغربية اسمها "سر تفاح الحباري".

عاقرًا بكل المعاني، هذا ما خلّا حياتها هم وغم، لا مع الرجل ولا بين الجيران، فتظل تبحث وتبات تفكر، ولا حد قدر يلقى ليه سر الواحد المنان، حتى لواحد نهار من نهارات زمان، جاب الله من أخبرها بسر "تفاح الحباري"، حيث الشابة هيأت دواها في يوم من الأيام، فكرت قبل ما تستعمله تمشي للحمَّام، لكن من بعد خروجها جاء رجلها وملأ بطنه بدواها، بلا ما يكون داري إنه ضيعه في رجائها، من بعد اللي صاب الشابة ورجلها مرت الأيام، وظهرت علامات الحمل على الرجل، وهذا كان سبب في الولادة الأولى بعد تسعة شهور، كانت ولادة بنت سبحان من خلقها وصورها، ما هي مثل البنات ولا تشبه أحدًا من والديها، نقول: حورية وخلاص!

مرت الأيام والشهور والبنت المقصودة تكبر والنور يزيد يطل من وجهها، أرسلتها أمها في يوم ترعى في الغابة، شعرت هناك بالعطش لكن ربي ما خلاها، سخر لها غزالة فتية مثلها شربت من لبنها، وفي ساعتها صارت البنت المقصودة تقفز مثل الغزالة، وكان خلف الشجار رجال كبار، يمكن يكونوا صيادة السلطان! بهرتهم غزالة الإنس بجمالها وبالنشاط اللي فيها، وغرهم الشيطان عليها حاولوا يصيدوها، لكن تقول كان حليب الغزالة حاميها، صارت تقفز والرجال يجروا من وراها ولا كانت لهم، تعبوا الصيادة من اللحاق بيها ورجعوا عند السلطان، يحكوا له عليها، تبهر السلطان باللي قالوه عليها، فأمرهم بإحضارها، راحوا الصيادة في الوقت

المعهود قاصدين الشر لبنت الجود، وما كان منهم إلا أنهم جابوها كما أمر السلطان، من بعد ما غلبتهم، وطلب منها السلطان تكون من نساء القصر، وكانوا ما يتعدوا وما يتحاصوا، لكن كلنا نعرف حرب النسا، ونعرفوا باللي ما يحبوش الشريك الزائد، تعبوا من التفكير لأجل ما تصير البنت المقصودة من القصر مطرودة، وما كان أمامهم غير عرافة القصر اللي سحرها ما ينفع غير يضر، نصحتهم بسبع إبر يوخزوا بهم البنت المقصودة، وهكذا فعلت نساء القصر، فصارت البنت من بعد الوخز حمامة تطير بجناحين، السلطان ما نام من حزنه عليها، حاول سلطان القصر يبني متنزه ينعزل فيه، ويتذكرها"

حين اقتربت الحمامة من أمها ورفرفت إلى أمها، حضنتها أمها، وقبلتها أمها، وقالت لها أمها: لا تبكي.

كان زوج أمها يراقب الحمامة، ولما رأى شحمها ولحمها، عند ذلك انتفض، عند ذلك اقترب، ورماها عن أمها ثم قال لأمها: اذبحيها، ونظفيها، واطبخيها على العشاء.

وعندما جاء العشاء كان مرق ورقاق، وكانت البنت مطبوخة ومكتفة فوق الرقاق، وكان زوج أمها يشفط، وكان زوج أمها يلهط، وكان زوج أمها يزلط، وكان يقول لأمها: كُلي.

وكان رأس مليكـــة على صدري، وكان نفســـها على صدري، ودمعها على صدري، وظلت مليكة تبكي!

93

كانت مليكة قد جاءت إلى الصيدلية، ولم تدخل الصيدلية، وقالت: أنا حبلى!

كان وردها أحمر، وكان تحتها أحمر، وكان فوقها أحمر، كانت كتفاح أحمر.

كانت يد مليكة على بطنها، ورأسها على بطنها، وفي بطنها كانت الحمامة تبكي، وكانت عيناها تودعاني، ووردها يودعني، وكانت الحمامة تودعني، وحضر الملك وجنوده وأخذوها، وسحبوها، ورموها في بلاد الملك وجنوده.

94

حين دخلت على الشربيني السكن قال لي: تعال كُل.

قال لي: إحنا دابحين.

وكانت حمامة غارقة في حلة مملوءة بالشوربة، وكان الشربيني يأكلها بالخبز والجبن. وحين دخلت الغرفة، وجدت جهاز التكييف عطلانا، ثم دخل الشربيني الغرفة وطلب مني مائة ريال نصف ثمن إصلاحه.

95

قورته كانت معقودة، وحاجباه كانا معقودين، وحظه كان معقودًا، ولسانه غير معقود، وكان يقول: التكييف باظ.

وقال: ستدفع النصف.

وعاد: ستدفع النصف.

ومد يده ليأخذ النصف.

وقلت: سأدفع الربع.

ووضعت يدي في جيبي وأخرجت الربع، ومددت له الربع، وأخذ الربع في جيبه، وقال: ستدفع النصف.

وكنت أقول: وانا مالي؟!

وكان يقول: وانا مالي؟!

وكنت أقول: من مالي.

وكان يقول: من مالي.

وكانت عيناه على مالي، وقلت له: ...

وقال لي: بتشخرلي؟!

وقلت له: ...

وقال لي: بتشخرلي؟!

وقلت له: ...

وقال لي: ...

كان يقول لي النصف، وقورته كانت معقودة، وحاجباه كانا معقودين، وحظه كان معقودًا، ولسانه غير معقود، كان يقول لي: راتبك.

وكان يقول لي: وحدك.

وكان يقول لي: شكلك.

وكنت أقول: لن أدفع.

وكنت أقول: ولا نكلة.

وكان جيبي معقودًا، وكان يقول لي: سكني.

وكان يقول لي: عقدي.

وكان يقول لي: داري.

وكنت أقول له: ...

وكان يقول: بتشخرلي؟!

وكان يقول لي: ...

وكان يقول: ...

ووثب عليَّ كأنه نمر، ولكمني كأنه نمر، ورفسني كأنه نمر، ووثبت عليه كأنه عجل، وسحبته كأنه عجل، وضربته كأنه عجل، وأفاق كأنه نمر، ووثب كأنه نمر، وقاتل كأنه نمر، وقاتلت كأنه عجل، وقاومت كأنه عجل، وأهنت كأنه عجل، وثار كأنه نمر، ولكم كأنه نمر، ورفس كأنه نمر، وكتفته كأنه عجل، وقلبته كأنه عجل، ولبخت فيه كأنه عجل، ودم النمر قد سال ودم العجل قد سال، وكانت يده تتهاوى، وكان النمر يتهاوى، وكان العجل يتهاوى، وكان النمر قد مدد، وكان العجل قد مدد، وقال النمر: النصف، وقال العجل: النصف، وكان جيبي معقودًا.

ثم لملمت أغراضي وحملتها وتركت السكن، وظل جيبي معقودًا.

96

في الصباح، تلاسنت مع عميل، وقبل الظهر خرجت من وراء الكونتر وتلاسنت مع عميل، وبعد الظهر تشاجرت مع عميل.

العميل الأول قلت له: ما فيش صرف. والعميل الثاني قال لي: إنت دكتور؟! والعميل الثالث قال لي: إنت خادم!

كان العميل الأول يمنيًا، وكان العميل الثاني مصريًا، وكان العميل الثالث أفغانيًا يملك ثلاثة محلات لتجارة العسل والأعشاب.

وكنت أؤكد العهد مع نفسي أنني لن أصنع مشكلة جديدة مع عميل! وأنا أفتح الأقفال الأربعة للصيدلية في بداية الوردية المسائية، قبل المغرب تلاسنت مع عميل، وبعد المغرب خرجت من وراء الكونتر وتلاسنت مع عميل، وقبل العشاء تشاجرت مع عميل.

كان العميل الأول يسأل عن أقراص بيضاء دائرية للمغص، وكان لا يعرف اسم الأقراص البيضاء الدائرية وغير متأكد من شكل العلبة ولا شكل الشريط الذي توجد بداخله الأقراص الدائرية البيضاء. وكان العميل الثاني قد رمى ثمن الأدوية التي أخذها أمامي

وقال لي: أسرع. وكان العميل الثالث يشير لي بعنف ناحية مصدر الموسيقى ويقول: أغلق هذا، أغلق هذا.

كان يقول لي: حرام! ما تستحي!

كان العميل الأول مصريًا، وكان العميل الثاني يمنيًا، وكان العميل الثالث عجوزًا يلبس جلبابًا أبيض ويرتدي الشال الأحمر والعقال على رأسه، وذقنه محنى.

في الصباح، كنت أعيد التأكيد على نفسي بأنني لن أصنع مشكلة مع عميل، وأنا أفتح الأقفال الأربعة، دخلت الصيدلية ولم يدخل أي عميل عليَّ الصيدلية، وفجأة وجدته دخل! كان يحمل الجوزة المحطوطة في الجركن الأحمر في يد، ويده الأخرى كانت تحمل المنقد والقوالح المشتعلة فيه.

جلس أبي على الكرسي الأخضر البلاستيكي، ورص حجر الجوزة، وشد نفسًا ثم أخرجه، وقال لي: احكِ لي عن الحياة.

وقلت له: احكِ لي عن الموت.

شد أبي نفسًا آخر وأخرجه، ثم قال لي: احكِ لي أنت عن الحياة.

فقلت:

"استجدت أحداث كثيرة منذ رحلت، تغيرت أشياء وبُدِّلت أشياء،

وجاء للبلدة خلق كثير، ورحل عنها آخرون، وهدمت بيوت، ورفعت عمائر، وشيدت فلل، وامتدت شوارع، وتكونت حارات، وابتلعت الأيام وهي تمضي - بنفس وتيرة عزمها الذي خبرت - أراضي، وبساتين، وذكريات، وبشرًا، بالجملة، تغيرت القرية ولم تعد بالتي عرفت".

أتممت الرواية في شهرين، واشتريت من أجلها كمبيوتر، وطابعة، وأرسلت رواية "الحياة عند عتبات الموت" إلى مسابقة أدبية، ثم.. ثم نزلت إلى مصر لقضاء إجازتي السنوية.

97

في الليل حضرت عمتي، كانت تنهج من صعود السلم، وكانت يدها متلهفة للوصول إلى الكنبة، وكانت تقف على باب الشقة، وكانت يدها متلهفة للوصول إلى الكنبة، وكانت تقول لي من عند باب الشقة حتى الكنبة: حمد لله على السلامة.

قالت: إنت تعبان؟

وقالت: محسود.

ثم أمرت أختي أن تُحضر ورقة وقلمًا.

رسمت عمتي على الورقة هيكلًا إنسانيًّا، وكانت يدا الهيكل مفرودتين وذراعاه مفرودتين، ولم يكن في الهيكل أي معلم سوى نقطتين عند عينيه، وكانت عمتي تُملس الورقة المرسوم فيها الهيكل على جسدي وتقول: بسم اللـه الرحمن الرحيم، بسم اللـه الرحمن الرحيم، بسم اللـه الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر النفاثات في العقد، قل أعوذ برب الناس، قل أعوذ برب الناس، قل أعوذ برب الناس.

كانت تُجري الورقة التي فيها الهيكل الإنساني على جسدي وتقول: رقيتك واسترقيتك، رقيتك من الحسد، رقيتك من العين.

ثم طبقت عمتي الورقة وناولتها لأختي وقالت لها: ولعي فيها!

بعد الرقية صعدت إلى الدور الثاني بالبيت، كنت في لحظة صمت وسكينة، وكانت لحظة الصمت داخلي وكانت تحيط بي، بعد هذه اللحظة رن جرس التليفون، قال الصوت إنني فزت بالمركز الأول في المسابقة الأدبية، قال الصوت إنني سأكرم في نقابة الصحفيين يوم 2009/1/10م.

حين نزلت إلى الدور الأرضي كانت عمتي تنظر إليّ بتعجب وتقول: ما شاء اللـه!

وكنت أنظر إليها بتعجب.

98

كانت أختي تبطط بيدها العجين على الطبلية، ثم ترميه على المطرحة التي تمسكها خالتي، وكانت خالتي تبطط العجين بيدها وبالمطرحة ثم تشقه نصفين وتمد المطرحة إلى أمي، وكانت أمي جالسة أمام الفرن، كان وجهها أحمر، وكان الإيشارب محسورًا عن شعرها الأبيض والأسود، وكانت تقول لي وهي تدخل المطرحة في الفرن: كده؟!

قلت لها إن الخبر نزل في أهرام الخميس الماضي، وكانت تقول لي إن جمعة بائع الجرائد طلب منها عشرة جنيهات في جورنال الخميس الفائت، وقالت له أمي: خد ألف وهات الجورنال المكتوب فيه اسم الولد.

كانت "آمال فهمي"(*) تسألني عن قيمة الجائزة، وقلت: الخلود!

كنا بعد صلاة الجمعة، وكنت أنتظر دوري في دكان حلمي الحلاق، وكان محمود وردة جالسًا بجوارى، وكان حلمي الحلاق منكبًا على رأس الحاج حسين السماحي كبير مشجعي كرة القدم بالكَفر، وكان الحاج حسين السماحي يذكرني بمباراة الدورة الرمضانية، كان يسألني لماذا لم ألعب الشوط الثاني.

(*) إذاعية مصرية شهيرة، وبرنامجها "على الناصية".

وكان حلمي الحلاق يترك رأس حسين السماحي ويعطي قفاه للمرآة الكبيرة، وكان يشير إلى محاشمه ويكتم الضحك، وكان محمود وردة صامتًا، وكان الحاج حسين السماحي ينظر إلى الراديو ومركزًا تمامًا مع برنامج "على الناصية"، وكانت آمال فهمي تسألني عن اسم الرواية، وكنت أقول لها: "الحياة عند عتبات الموت".

وكان الحاج حسين السماحي وحلمي الحلاق صامتين، وكانت آمال فهمي تسألني سؤالها التقليدي: تحب تسمع إيه؟

وكانا يقولان: اللـه.

وكان محمود وردة سارحًا، وكان "وديع الصافى"(*) يغني:

يا عيني على الصبر

آه يا عيني

يا عيني يا عيني عليه

آه يا عيني على الصبر

يا عيني يا عينى عليه

يشوف الدمع في عينينا

يواسينا

يشوف الجرح في ادينا

(*) مطرب لبنانى كبير.

يداوينا
يشوف الدمع في عينينا
يواسينا
يشوف الجرح في ادينا
يداوينا
ولما الدنيا تنسانا
نلاقى الصبر ويانا
ولما الدنيا تنسانا
نلاقى الصبر ويانا
في خطوتنا في سكتنا
ويسمع لينا شكوتنا
وعمره في يوم ما قال لأ
ولا في مرة سألنا ليه؟
وعمره في يوم ما قال لأ
ولا في مرة سألنا ليه؟
يا عيني يا عيني يا عيني
يا عيني على الصبر

يا عيني عليه

يا عيني عليه

99

كانت المرأة الخمسينية تجلس أمامى في الميكروباص وتضع الموبايل على أذنها وتقول: المنجد قال لي بعد أسبوع.

كانت المرأة الخمسينية تقول: احجز يومين في الفندق على حسابي يا محمد.

كانت المرأة الخمسينية تسأل محمد عن ابنتها، ثم توالت دعوات المرأة الخمسينية لزملائها في الشغل وأصدقائها في الشارع وأقاربها في البلد لدعوتهم على الفرح.

عندما رفعت السيدة ذات العباءة السوداء والبشرة السوداء الجالسة بجوار المرأة الخمسينية الموبايل على أذنها بكت، ثم قالت إن الميتة لا تزال موجودة بالمستشفى، وقالت إنها ستسافر اليوم.

عندما وصل "محمد بك الألفي" إمبابة، بقي جيش "محمد علي" في مكانه في البر الآخر للنيل لا يبرحه، ثم تفرق جيش محمد علي عنه، كان جيش الألفي منظمًا على الطريقة الإنجليزية الحديثة،

وكان يلقي الرعب في قلوب ناظريه... مات محمد بك الألفي في دهشور مسمومًا، ودانت مصر بموته لعصر جديد.

وكان مسجد "رابعة العدوية" قد ظهر، فقلت: على جنب يا أسطى.

وزعقت مرة أخرى كي يسمع السائق صوتي من صوت الراديو العالي.

100

حين دخلت دار النشر، كانت موظفة الاستقبال مستغرقة في قراءة كتاب، وكنت أكلمها وعيناي تفتشان عن اسم الكتاب، كنت أسألها عن اللجنة وعن ميعاد الرد، وكانت عاجزة عن إخفاء ضجرها من دخولي عليها في هذا التوقيت، ثم قلبت الكتاب، وقالت: الرد بعد شهرين.

وكانت أكلمها عن عودتي إلى السعودية، وكانت تقول لي: صعب.

وكانت تقول لي: صعب!

ثم قلبت موظفة الاستقبال بدار النشر الكتاب مرة أخرى، وقرأت

اسمه، كان اسمه "صحراء المماليك"(*).

101

حين عدت إلى باب مكة لم أجد لمليكة أي أثر، كنت أراقب الشارع والمارة من بين الفراغات الموجودة بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر، ولم أجد لمليكة أي أثر. كنت أراقب العباءات السوداء القادمة من سوق باب مكة وداخلة حي العمارية، وكنت أراقب العباءات السوداء الخارجة من حي العمارية ومتجهة إلى سوق باب مكة، ولم أجد لمليكة أي أثر.

كنت أراقب زوجها وهو عائد من عمله في المساء يحمل أكياس الخضراوات والفاكهة، وكنت أسأل نفسي: هل مليكة موجودة معه؟

وتمنيت أن تكون قد تخلصت من آلام القولون، كانت تقول إنها لن تستطيع تحمل آلام القولون إلى ما لا نهاية، كانت تقول: لو عدت المغرب وبريت فلن أعود.

وتمنيت أن أعود أنا أيضًا، ليس من أجل آلام القولون وحدها، بل من أجل آلام الروح أيضًا.

(*) رواية شهيرة لخيرى شلبى.

بعد رجوعي إلى السعودية، أصبح باب مكة - وجدة كلها - له وطأة السجن، الصيدلية سجن، والشارع سجن، والسكن سجن، والأكل، والشراب، والهواء المليء بالرطوبة، سجن، والناس كلهم داخل السجن، ومشغولون بحياتهم فيه، وكنت من يوم نقابة الصحفيين مشغولًا بما وراءه.

102

سكنت مع عبد الحميد الذي يعمل بصيدلية "العمودي"، في شقته بعمارة الموصلي، وكان عبد الحميد يؤجل ويؤجل ويطول به التأجيل، ينوي عبد الحميد الرجوع إلى مصر منذ عشرين سنة، وقد انقضت خمس وثلاثون سنة من عمره في الغربة، سنتان فقط قضاهما هنا وهو عازب، وثلاث وثلاثون سنة وهو متزوج، كانت السنون قد انقضت في جدة، مات أبوه وهو هنا، وماتت أمه وهو هنا، وماتت أخته وهو هنا، في جدة.

جاءت زوجته هند إلى جدة، وحملت في ابنه أحمد ثم عادت إلى مصر وتركته، ثم جاءت إلى جدة وحملت في ابنته منى ثم عادت إلى مصر وتركته، ولم تأتِ غير ثلاث مرات منذ ولدت نور التي في الصف الثالث الإعدادي.

كان عبد الحميد يحط القرش على القرش، وكان يرسل قروشه كلها إلى هند في مصر! اشترت هند شقة في الحي العاشر وتؤجرها، واشترت شقة في الكوربة وانتقلت للإقامة بها، واشترت هند شقة لابنها أحمد، وكان عبد الحميد يرسل لابنه أحمد لابتوبات وموبايلات وقروشًا، واشترى أحمد من قروش عبد الحميد تويوتا كورولا موديل 2009 بالقسط، وكان عبد الحميد يرسل أربعة آلاف ريال شهريًا إلى مصر، وكان راتبه خمسة آلاف ومائة وخمسين ريالًا، وكان يدفع 700 ريال إيجار الشقة، ويصرف باقي الراتب في أول الشهر، وكان يعتمد على جلب ساكن جديد يشاركه السكن وعلى قياس الضغط وضرب الإبر. كان يقيس الضغط في الصيدلية بخمسة ريالات، وبره الصيدلية بخمسة عشر ريالًا، ويضرب الإبرة العضل بخمسة ريالات، والإبرة الوريد بعشرة ريالات في الصيدلية، ولم يكن لضرب الإبر خارج الصيدلية تسعيرة محددة.

مرة، دخلت عليه وكان يتشاجر مع عامل مصري على تسعيرة ضرب الإبرة، كان يرتدي طاقية بيضاء عالية، وكان تحت الطاقية علامة صلاة عبارة عن ثلاث دوائر سوداء، وكان حاجبه شكل رقم ٨، وكانت يده وجسمه كله يرتج وهو يصرخ: خمسة ريالات فوقهم.

كان العامل المصري يمد له يده بالخمسة ريالات، وكان عبد الحميد يقول للعامل المصري: خمسة ريالات فوقهم.

وكان العامل المصري يقول: هاجبهالك بكرة.

وكان يقول: الوقتِ.

ودخل الصيدلية عامل مصري آخر، ووضع خمسة ريالات أخرى على الكونتر وهو يبتسم لصديقه، وكان يقول: الرحمة يا دكتور!

وكان عبد الحميد يستغفر وينفخ وهو يضع العشرة ريالات في الدرج.

كان عبد الحميد يضرب إبرًا للعاملين بشركة الكتبي وللعاملين بالبنزينة ولأصحاب البنزينة وللتجار اليمنيين الذين تسعودوا وللتجار المصريين الذين تسعود أبناء أخواتهن.

كان يطبخ كل ثلاثة أيام، وكان يأكل الطبخة في ثلاثة أيام، وكان يأكل من الأكلة في الفطار والغداء والعشاء، وكان يفتح التليفزيون ويتفرج على الكرة وهو يأكل، ويشجع فريقه وهو يأكل، ويرمي الملعقة في الطبق ويقفز في الهواء مع كل هدف لفريقه.

كان عبد الحميد يشجع الأهلي، وأهلي جدة، وأرسنال، وبرشلونة، وأياكس. يحب عبد الحميد الكرة الهولندية، يعشق كرويف، وفانباستن، وروود خولييت، ويقول عن بيرجكامب إنه الهداف رقم 1.

يقضي عبد الحميد يومه بين العمل، وقراءة أخبار الكرة، ومتابعة أخبار الكرة، ومشاهدة مباريات الكرة، وبعد العودة من الصيدلية

يتحدث مع هند عبر الشات، وبعدما ينتهي من حديثه معها ينام، ويقوم ويصلي الفجر حاضر كل يوم، وبعد العودة من صلاة الفجر كان يمدد على السرير ويقرأ ورده المكوّن من سورة تبارك، وسورة الرحمن، وسورة يس، وآخر سورة الصافات، وقل هو اللـه أحد "ثلاث مرات"، وقل أعوذ برب الفلق "ثلاث مرات"، وقل أعوذ برب الناس "ثلاث مرات"، وكان يضع المصحف بعد فراغه من الورد ويعقد ذراعيه وينظر إلى الباب ويفكر!

103

كنت أنظر إلى الرفوف الخشـبية، وعلب الـدواء، والقارورة البلاسـتيكية التي فيها ماء محلى، والقارورة البلاستيكية التي فيها الماء غير المحلى، حين دخل عليَّ الصيدلية عجوز سـعودي، كان يرتدي الجلباب الأبيض والشال الأحمر مربوط بالعقال حول رأسه، وذقنه محنى.

كانت يده مرفوعة أمامه وتنزف، وكان يطلب مني تغيير على الجرح، وقلت له وأنا مشغول برد دار النشر: في المستشفى.

قال: هذه مملكة عبد العزيز.

قلت: عبد العزيز هو الذي وضع القانون.

قال وهو يصرخ: تقول عبد العزيز، إيش بك تفتكر إنه مبارك؟!

وخبط بيده على الكونتر الزجاجي وصرخ: هذا الملك.

وكسر الزجاج وقال لي: أتسُب عبد العزيز؟!

كنت خائفًا ومرعوبًا وقلت مضطربًا: لم أسب عبد العزيز!

كانت يدا السعودي تنزفان، وكانت واحدة مرفوعة أمامه والثانية تمسك بالجوال المحطوط على أذنه، وكان يُكلم الشرطة السعودية ويقول: هذا خادم مصري، سب المليك والمملكة.

ثم خرج العجوز والجوال في يده وهو يؤكد أنه لن يتحرك حتى تجيء الشرطة، وكنت قلقًا من مجيئها، وكنت أسترق النظر إليه وإلى يديه اللتين تنزفان من بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر.

فكرت في المستقبل وفي الكتابة، وفكرت في السجن، وكنت أقول لنفسي وأنا أقوم بتنظيف الفاترينة الزجاجية: لم أسب عبد العزيز!

وفكرت وأنا جالس على الكرسي ومرعوب من مجيء الشرطة: كيف يتحكم عبد العزيز الميت في مصيري أنا الحي كل هذا التحكم؟!

كان راضي الشربيني قد حكى لي عن ناس محبوسين في بطن الجبل والظلام، يسألون زائريهم: عبد العزيز مات؟

وكنت لا أريد لعبد العزيز الموت، كل ما أريده أن ترد دار النشر وأنا أملك القدرة على الخروج النهائي من مملكته.

كنت قد أنزلت لوحة الكمبيوتر على الأرض، وأدخلت نصف اللوح الزجاجي المكسور إلى المعمل، وجمعت الزجاج المكسور في كيس عليه علامة الصيدلية ورميته خارجها، وتلفت يمينًا ويسارًا وأنا أبحث عن السعودي، واسترحت حين لم أره، إلا أنني كنت أفكر ماذا لو جاءت الشرطة واقتادتني إلى بطن الجبل والظلام بسبب سب عبد العزيز، أنا لم أسب عبد العزيز!

دخلت الصيدلية وكنت أبحث عن شيء أداري به الريون المكسور، وأغطي على حادثة سب عبد العزيز، وجدت لوحًا زجاجيًا داخل المعمل فأخذته ووضعته مكان اللوح المكسور، لم يعشق اللوح الزجاجي الجديد في الألوميتال تمامًا، كان الطرف البعيد من الباب المعدني معشقًا في الألوميتال، وكان الطرف القريب من الباب المعدني غير معشق في الألوميتال، ووضعت لوحة الكمبيوتر على الطرف المعشق، وكنت أخشى أن يزورني أحد من الإدارة ويسألني عن الزجاج الزائد عن الألوميتال، وبقيت أرعى الطرف الزائد وأنبه الزبائن قبل أن تركن عليه: الزجاج ممكن يتكسر. وحين أتت الساعة الثانية ظهرًا خرجت مسرعًا وأغلقت الصيدلية، وكنت أغلق القفل الرابع حين اتصلت بي دار النشر واعتذرت عن عدم نشر الرواية.

104

هذا ليس عالمي، وهذه ليست حياتي، أنا لن أعيش هكذا! أعرف أنني لا أملك قفزة الأسد، لكني أملك عزم النملة وتصميمها.

بقيت أقول لنفسي بصوت عالٍ هذا الكلام حتى أصبحت الساعة الثانية عشرة مساءً، فأغلقت الصيدلية وانصرفت.

105

أشعلت سيجارة، ومشيت حتى وصلت دوار البيعة، كانت الأنوار تملأ أول طريق المدينة الطالع، وفي الدوار كانت الخضرة تملأ الأرضية، وكان النخيل يقف بخضاره الباهت، وبلا ثمار في أعلاه. جلست على الحشائش الخضراء لدقائق، وأشعلت سيجارة أخرى ثم انصرفت، ودخلت عمارة الموصلي من مدخلها الخلفي الذي في المنتصف، كان الحارس اليمني يملأ براميل تخزين الماء، وكان صوت مواتير رفع الماء يدوي ويملأ المكان كله، وكنت أصعد السلالم درجة من بعد درجة من بعد درجة، صعدت خمسًا وثلاثين درجة من درجات السلم، ثم وقفت أمام باب شقة عبد الحميد. كنت أسمع الصوت واضحًا، وترددت بين الدخول والانتظار، ثم

ضغطت على الجرس ووضعت المفتاح في الكالون، ودخلت.

106

كان عبد الحميد يضع السماعات على أذنيه، وكان المايك أمام فمه، والطاقية على رأسه، وكان يرتدي فلنة داخلية بيضاء مهترئة، وكان يقول لي: اطلع على طول، هو احنا بنقول أسرار!

ونطق الصوت من داخل سماعات الصوت السوداء: بتكلم مين؟

قال لها: الساكن الجديد.

ثم دخلت غرفتي ومددت على السرير، وكان يقول لها: نفسي أرجع

وقالت له: ترجع تعمل إيه؟

قال لها: تعبت

قالت له: كله تعبان

قال لها: العيال بتوحشني، وإنت بتوحشيني

قالت له: بطل مراهقة

قال لها: أنا باتعذب

قالت له: اقرأ قرآن

سكت عبد الحميد لحظة ثم تنهد، وكانت هند تقول: أقساط عربية أحمد، وأقساط شقة الساحل، ودروس منى في كلية الطب.

وكان عبد الحميد ساكتًا وتنهيده يزداد حرارة.

ونطق صوت: السلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته، إزيك يا بابا.. أنا منى.. قل أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم، واستهدى باللـه واستغفر.

فقال عبد الحميد: أستغفر اللـه العظيم، أستغفرك يا رب وأتوب إليك.

فضحكت هند وقالت: طول عمرك أمير.

107

صحوت من عز النوم، ورأيت شبحه، وكان شهيقه عاليًا، وكان

زفيره عاليًا، وكانت صلعته تلمع تحت ضوء مصباح الصالة، وكان يقول: الحقني.. الحقني.

أخذته وأجلسته في الصالة، كان مطيعًا مثل عبد وخائفًا مثل قط، وكان يقول: اطلب لي هند.

كان يقول: كلّم منى.

وكان يصرخ بأعلى صوته: أنا باموت!

سندته بيد وباليد الأخرى كنت أُشربه، وناح عبد الحميد وهو يشرب، وسقط الماء وأغرق نحره وفلنته البيضاء المهترئة وبنطلونه، وكان ينوح ويقول: أنا باموت!

وطيت بجواره على الكرسي، ووضعت ذراعه اليسرى على كتفي، ويدي اليمنى كانت تحت باطه، وحملته وأرحته في سريره، ولم يكن يقول غير كلمة واحدة: أنا باموت!

108

أرسلت استقالتي وبعثتها إلى إدارة المؤسسة، كان كل الضغط قد زال، ولم أعد أشعر بالظلام ولا بالسجن، كنت أرى نورًا.

109

لم يعد للسجن الآن وطأة، السجن داخلنا، ومفاتيح السجن داخلنا، وليس أسهل من قرار أن تبقى في السجن، وليس أصعب من قرار أن تخرج منه!

كنت أسير في الشارع الرئيسي لحي العمارية، كنت أسير في سوق مكة وسوق البدو، وكنت أرى الحافلات تقف في باب مكة، وكنت أرى سور مقابر "الأسد"، كنت أجلس في الصيدلية وأتابع حركات المارة والسيارات من بين الفراغات الموجودة بين شنط البامبرز وأجهزة الضغط والسكر، وأنا متصالح مع كل ذلك، كنت أعرف أن كل ذلك ورائي، كل ذلك صار من الماضي، وهل أنا أحمق لأعتب على الماضي؟!

كنت أعرف أن المؤسسة قد ارسلت مندوبا إلى مصر لجلب "مستخدمين جدد تحت مسمى صيادلة"، وكنت أعرف أنه عاد، وكنت أعرف أنهم على وصول، وكنت أنتظر اليوم الذي سآخذ فيه تأشيرة الخروج النهائي من الجوازات، ورحت أودع الأماكن كلها، دخلت المطاعم كلها لمرة أخيرة، دخلت مطعم اليمني الذي في سوق باب مكة، الذي يقدم بين السلاطات عصير الحلبة، ودخلت المطعم الباكستاني الموجود خلف شركة الكتبي للمسامير والمعدات، الذي يقدم حلوى الجزر ضمن وجبة الغداء، وأكلت من المطعم الأفغاني

كبسته التي لا تقاوم. وفي كل مطعم كنت أجد الناس تلوذ من وحشة الغربة بطعامها الذي ألفته في بلادها البعيدة.

حين دخلت الشقة على عبد الحميد كان وجهه هادئًا ورائقًا مثل ميت، وكان وديعًا ومستسلمًا كميت. كان قد أدرك الحقيقة ووعاها، وأدرك أخيرًا أنه لا قبل له بمواجهتها، وبعدما أنهى المحادثة مع هند، دخل عليَّ الغرفة وقال: هند جاية بعد أسبوعين.

110

اشتريت ماكينة من سوق الحلاقين بحي الصحيفة، وكان للماكينة سلك أسود طويل، وكان جسدها أسود كله عدا الرأس المعدني وقطعة معدنية فوق الرأس، كانت مثبتة في جسم الماكينة بمسمارين وكان مكتوبًا عليها:

THRIVE
ELECTRIC CLIPPER
MODEL808-2
220-320 V 50/6H22SW
SERIAL NO 0891705
THRIVE CO. LTD. MADE IN JAPAN

وكان سعرها 250 ريالًا، وكان البائع يسألني: إنت في صيدلية الوصفة؟

وقلت له: نعم.

قال لي وهو ينظر إلى الماكينة: تعيش معاك طول العمر.

ثم سألني عن الحبة الزرقاء، والحبة الصفراء، وعن الحبة التي تؤخر القذف، ثم عمل خصمًا على ماكينة الحلاقة. وقبل أن انصرف من عنده أتت سيدة حلوة ومعها بنت سمراء كانت تشبهه ودخلت إليه المحل الضيق المكدس بأدوات الحلاقين.

واشتريت جواكت، وترنجات، وبلوفرات ثقيلة خوفا من برد مصر، وكنت أكره البرد منذ أيام الطفولة التي لم يكن عندي فيها جواكت ولا ترنجات ولا بلوفرات، واشتريت كونشيات كرة، وشربات كرة، وشورتات كرة، وفلنات كرة، وكان لون الفلنات أحمر وأصفر وأسود وأبيض وأزرق وأخضر وأورانج فاتح وأورانج غامق، وكان مكتوبًا عليها - كلها - رقم 7.

ووضعت شرائط الأغاني كلها في كيس بلاستيكي كان لونه مووف، والكتابة داخل اللون الموف باللغتين العربية والإنجليزية، وكانت الكتابة بيضاء كلها عدا حرف الواو، والـW، فكانا مكتوبين باللون الأحمر، وكان هذا لوجو مؤسسة الوصفة.

وضعت الشرائط والحاجات كلها في حقيبة السفر وأغلقتها، ومن قلقي على مجيء هند إلى جدة، كنت كل يوم من التاسعة صباحًا حتى الثانية ظهرًا، ومن الرابعة حتى الثانية عشرة مساءً، أتصل بزملائي في فروع المؤسسة وأسأل عن المستخدمين الجدد.

111

أخذت تأشيرة الخروج النهائي قبل ثلاثة أيام على يوم السفر، وشحنت الكمبيوتر والطابعة ومسودة روايتي الأولى التي كان اسمها "الحياة عند عتبات الموت" لو تذكر! وحقائب السفر قبل السفر بيومين، وودعت السعودية في اليوم الذي يسبق السفر، وفي يوم السفر ربطت حزامًا جلديًّا أسود له شنطة على وسطي، وكنت أضع داخلها جواز السفر الذي عليه تأشيرة الخروج النهائي، وأحمل شنطة هاند باج على كتفي. وحين مررت بصيدلية "العمودي" كانت امرأة سمراء وتخينة وتتكلم بصوت عالٍ مع عبد الحميد، وكانت شنط السفر ملقاة بجوارها على الأرض، وكان عبد الحميد ينصت إليها، وكان وديعًا ومستسلمًا كميت.

رميت صيدلية "العمودي" ورائي وعدوت، كانت البنزينة القديمة ومسجد الملك عبد العزيز الجديد عن يميني، وكانت محلات العسل

والأعشاب عن يساري، وفي مواجهتي كانت عمارة "بُقشان"، وكان تحتها البنك والصيدلية، وتعلقت عيناي على الصيدلية من بره، تأملت البابين الحديديين والأقفال الأربعة، وتسمرت عيناي على الأقفال الأربعة ثم توقفت فجأة وقد اقتحمتني نوبة بكاء عارمة، وفكرت أن الأماكن سجون لا تودع أحدًا ولا تبكي على أحد، ومستعدة دومًا لسحق مستخدمين جدد، وتأكدت أن معركة الإنسان مع المكان يمكن الانتصار فيها، لكن ماذا عن المعركة مع الزمن؟

المؤلف في سطور

هشام البَـواردي

- روائي من مواليد 1977 بالمنصورة.
- حاصل على بكالوريوس الصيدلة من جامعة الأزهر بالقاهرة عام 2000م.
- فازت روايته الأولى "الحياة عند عتبات الموت" بالمركز الأول في جائزة إحسان عبد القدوس الأدبية عام 2009م.
- نشرت له مقالات عديدة في جريدة المقال المصرية.

البريد الإلكتروني:

hesham.albawardy@yahoo.com

ماذا يعني أن رمز الكربون هو "Co"، ورمز الكربون الثنائي هو "Co2" ورمز الكربون الثلاثي هو "Co3"؟

هل سنُزعج الكالسيوم لو قلنا إن رمزه ليس "CA"؟

هل سيغضب الحديد لو قلنا إن رمزه هو "Ca" ورمز الكالسيوم هو "Fe"؟

هل ستختلط الأنساب، ولا بد من بعث مندل من جديد؟ أنا لا أعرف! هل تعرف أنت؟!

المهم أني حفظت، حفظت مسائل رياضيات كاملة، ووضعتها مثلما هي في ذاكرتي في كراسة الإجابة!

هذه الرياضيات هي الأخرى مشكلة، أنا للآن أبحث عن سر بكاء جدي المتواصل، في الفرح والحزن، وأنت تقول لي لنفترض.

لنفترض أن س + ص= ع

إذا كنا لم نقدر بعد على تفسير الواقع المثبت، فلماذا تطلب مني إثبات ما حدث في الخيال؟!

هل تطلب مني أن أكون سعيدًا، وأنا أكتب "هـ.ط.ث" بعد أن أثبت ما حدث في الخيال، ولا ترى حيرتي وقلقي وأنا عاجز عن أن أكتب "هـ.ط.ث" أمام ما حدث في الواقع؟!

دار العين للنشر
Elain Publishing House